عن شيوخ الإخوان في الخرمة، وخالد بن لؤي

إبراهيم الدميجي

"عن شيوخ الإخوان في الخرمة، وخالد بن لؤي"

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وجنده، وبعد:

فهذه وقفات عجْلى في بستان الإخوان الشذي، لنقطف شيئاً من ثماره، ولنشم بعض رياحينه وأزهاره، ولنمتّع البصر بمروجه ورياضه، وسنطل عليهم هنا من نافذتين؛ الأمير خالد، وبعض العلماء الذين وجّهوا دفّة المسيرة الإخوانية، وأُنبّه إلى أنّ الكلام عنهم هنا ليس استقصاء ولم يلتزم الاستيفاء، فليس في حوزة القلم الكثير، وعند غيري أكثر مما عندي فلعلّهم ينشطون لذلك، والشيء بالشيء يُذكر، والحَيَا يذكّر بأهل المرابع.

"الأمير الموفّق والقائد الحكيم والمجاهد المظفّر، خالد بن لؤيّ"

قال ابن غبيشان:

معه شريف الهدى ما هـــو بملالي مسلم روحـــه يبي مرضات وجه الله

يا بو سعد جعلها تفـــداك الأنذالي ولعـــل يفداك جنـــد ما يخافون الله

يجمل بنا ذكر شيءٍ من أخبار القائد خالد بن منصور بن لؤي لأن التاريخ لم ينصفه، فمع مقاماته العظيمة في الجهاد؛ إلا أن غالب الناس لا يُدركون حجم ذلك الأمر، وليس كلّ الناس جاهل به فبعض أهل نجد _كما ذُكر لي_ كانوا يضحّون عنه أضاحي في العيد الأكبر عرفاناً بجميله على الأمة، فرحمه الله تعالى.

يُقال: إنّ أوّلَ أميرٍ للخرمة من قبل الشريف هو لؤيّ بن غالب بن زامل الشريف الّذي نُصّبَ من قبل شريف مكة، عام: (١٢٠٦) (١) من قبل أمير مكة غالب بن مساعد تكريماً لوالده غالب بن زامل على طرده قبيلة الظفير من الحجاز، فكافأه بأن عيّن ابنه لؤيّاً أميراً على الخرمة، وعلى إثره توارث الأشراف إمارة البلدة إلى يومنا هذا، وآخرهم حتّى تاريخه (١٤٣٠) _ بعد انقطاع دام نحو أربعين عاماً _ هو الأمير خالد بن عبد

الله بن الأمير خالد بن منصور بن لؤي، من "العبادلة"نسبة إلى عبد الله من "ذوي حمود" .

والخرمة كانت ولا تزال من ديار قبيلة سبيع الكبيرة، ويسكنها أربعة أفخاذ منهم، فسوادها الأعظم هم بنو ثور ثمّ القريشات والصّملة وآل عمر .

نزل الخرمة عبد الله أبو شوارب العبدليّ، وهو من ذرّية الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وصلى الله وسلم على جدّه . ثمّ إنّ عبد الله وُلد له ابنان ناصر ومنصور، أمّا ناصر فوُلِد له غالب الذي كان أمير الخرمة في أول أمر الإخوان، وهو والد منصور الّذي كان من كبار الإخوان، أمّا منصور بن عبد الله فوُلد له ثلاثة وهم خالد وهو أمير الإخوان وبعيجان ونائف .

وُلِدَ خالد في الخرمة من أسرة سلفيّة المعتقدِ هاشميّة المَحْتِدِ، وتربّى على صفاء الفطرة ونقاءِ العقيدة الّتي لم تتلوّث ببدع ذلك الزمان، وترعرع شيئاً فشيئاً في أكناف الكرم والنبل والشهامة، وتربى على الرّجولة والفروسية والشجاعة، وقبل ذلك على العبادة، وكان خير معين لابن عمه الأمير غالب بن ناصر بن عبد الله حتّى توفّي قرابة عام: (١٣٣٢) فتولّى أمارة الخرمة من بعده .

وبعد نحو ثلاث سنين وصلت الحسين في مكة أخبار سلفيّة خالد ودعوته، فاستدعاه إليه، وأبقاه عنده بضعة أشهر، ثمّ بعثه مع ابنه عبد الله الملقب بـــ"البيه" لمحاصرة من تبقّى من الأتراك في الطّائف إبّان الثورة العربيّة على الأتراك، ثمّ للمرابطة بوادي"العيص" شرق المدينة، ثمّ إنّ خالداً ترك ابن عمه "البيه" وانفتل معه بضعة رجال لنجد مهاجراً إلى الله ورسوله ولا نزكّيه على الله تعالى .

ولم يكن خالد في بدايته بذلك المتديّن الّذي يلفت الانتباه بصلابة تقواه، حتّى دخل الدّين قلبه بِقُوَّةٍ وتدثر بدثار الدين، وتشرّب حب الشريعة، فغيِّر الإيمان وِجْهَتَهُ من حرب الترك مع عبد الله البيه، إلى حرب البيه وأبيه لّما حاربا التّوحيد وأهله .

وكان خالدٌ يحبّ البادية، ولا يعود لنخله إلّا مع القَيْضِ مع باكورة الرّطب كعادة أهل الخرمة . ثمّ ذهب لمكّة وحصل ما حصل حتّى تولى أمارة الخرمة بأمر الإمام عبد العزيز بعدما بايعه في الرياض . ويقال بل كان أميراً للخرمة أربع سنين بعد وفاة ابن عمّه غالب بن ناصر، فتولّى الإمارة وأقرّه عليها الحسين، وهذا هو الرّاجح . وبعد مبايعته للإمام عبدالعزيز أقرّهُ على إمارته للخرمة .

وبعد انتهاء المغازي الكبار، نزل أخوه نايف بن منصور " الوطاة " (٢) وكان نائف قبل ذلك يريد "القنصليّة" (٣) ولكن أبى عليه أخوه خالد وقال للملك عبد العزيز: لا تعطه أمراً على القنصليّة حتّى لا يذهب عنّي بعيداً، ولكن أعطه أمراً على الوطاة وهو ما حصل، فترل عليه بعض القريشات من سبيع والسّميان من البقوم وبعض الأشراف .

ولخالد من الأبناء، عبد المحسن الأوّل وهو بِكْرُهُ واستشهد يوم الخرائق، وكان فارساً نادراً، وسلطان وهو الثّاني بعد محسن، وسعد وهو الأمير من بعده كان مقداماً مغواراً، وإن كان في سيفه رَهَقٌ وبطش، عفا الله عنه، قد حباه الله بقوّة جسد، وقوّة رأي، وقوّة قلب، ولّما توفي بالطّائف غسّلَهُ الشيخ محمد بن رشيد رحمه الله، فكان يتعجب من كثرة مجافر البنادق (٤) في جسده من المغازي(٥).

ومن أبناء خالد كذلك زامل وحسين وعبد الله وعبد المحسن الثّاني .

لقد كان خالد مثالاً نادراً لصفات عديدة، قلّما تجتمع في شخص، من عمق التديّن، والحكمة ، والرّأي المسدد ، والحلم ، والكرم ، والشّجاعة ، وتعظيم كلمة العلماء ولزوم غرزهم ، وحفظ العهد وإتمام العقد ، وحفظ البيعة لإمام المسلمين ولزوم طاعته وحرب من شقّ عصاه ونقض عهده، وإلى شيء من متفرق أخباره:

فمن حرصه على مصالح المسلمين واهتمامه بالعامة:

فيروى عن سليمان الحجي رحمه الله تعالى، قال: قال لي الأمير خالد رحمه الله: يا مطوّع، مسألتين استعن بالله وابدأ فيهنّ، حتى أساعدك عليهنّ وأنا حيّ؛ حسو العباسا (٦) ومسجد قمزان (٧) وكان حسو العباسا في حي السوق القديم، مطويّاً بالخشب،

وكان الأمير يريد رصّه بالحجر، أما مسجد قمزان فقد كان عشّة، والأمير يريد بناءه بالطين واللبن، وقد تم تنفيذ هذين المشروعين الخيريين في آخر حياته أو في سنة وفاته رحمهما الله وتقبل منهما .

ومن زهده في الدنيا وإكرامه لأهل العلم:

أرسل له الملك عبدالعزيز له كسوة العيد في إحدى السنين، فأمر أهله أن يغسلوا ثياباً مستعملة عنده، وعيّد بها، وأعطى الكسوة الجديدة لأحد طلبة العلم. وعادات السادات سادات العادات.

وبعد فتنة السبلة تسوّر بعضهم قصره لينهبوه فلم يجدوا سوى تنك تمر مسوس! وهو الذي لو أراد لملأها ذهباً، فلم يكن إمامُه يرد له طلباً، ولكن أبى الزهد على الحرص فغنم.

قال أحمد شوقي:

وكن في الطريق عفيف الخطى شريف السماع كريم النظر
وكن رجـــلاً إن أتوا بعـــده يقـــولون: مَـــرَّ وهذا الأثر

ومن ذكائه وصدق فراسته وحزمه:

قال ثامر بن حمد بن هليمة رحمه الله تعال: كنا في غزوة من الغزوات، وكان معنا رجل له غنم كثيرة من أهل تلك الناحية، وقد لبس المعمّ، وكان يزورنا كلّ ضحى يستمع للحديث، ويتحدّث مع الإخوان، وقد جعل نفسه واحداً منهم، وفي ليلة من الليالي؛ سمع الأمير كلب هذا الرجل ينبح نباحاً متواصلاً، فقال لاثنين من الإخوان: اذهبا واختبئا بعيداً عن بيته، فربما تجدان أحداً خارجاً من عنده، فأتياني به ولا يشعر ذلك الرجل بشيء، فذهبا فوجدا مطيّة معقّلة، فراقباها من بعيد، حتى جاء صاحبها، وأطلق عقالها، وركبها فلمّا أبعدا عن بيت الرجل قربا من مطية الرجل واعتقلاه وأخذا بخطام ناقته يقتادانه للأمير خالد، فهدده الأمير بالقتل إن لم يخبره بالأمر، فأخبره أنه يأتي لهذا الرجل بين الحين والآخر، ويأخذ أخبار الإخوان منه، ثم يذهب بها إلى أمير تلك المنطقة،

وهو بدوره يبعث بها إلى أمير الطائف، وذاك يبعثها لشريف مكة أوّلاً بأوّل . فأمر الأمير بحبسه، وفي الصباح جاء ذلك الرجل (الجاسوس) كعادته، فقال الأمير: خذه يا سعيد، ومرّ به أولاً على الرجل المربوط في الخيمة، حتى يراه جيّداً، ثم ضع الرصاصة في رأسه . أمّا صاحب المطيّة فقد عفا عنه الأمير، وانضم إلى الإخوان وصلح حاله . (وفي البخاري: أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمر بقتل الجاسوس وهو عينٌ للمشركين، لّما جلس إليهم، ثم وثب على راحلته، وذهب للعدو بأخبار المسلمين، فأمر الصحابة بلحاقه، فأدركه سلمة بن الأكوع فقتله. فقال صلى الله عليه وسلّم: (من قتل الرجل؟) فقالوا: ابن الأكوع . فقال: (له سلبه أجمع) .

ومن فراسته كذلك:

قال سيف بن سعد العبيسي رحمه الله تعالى: ضاع لرجل شاة، فأخذ يتجوّل في الشوارع ويسأل عنها، فمرّ على بيت قد عُرِف أهله بالسرقة! فشمّ رائحة الدسم من عندهم، فظنّ أنها شاته، فطرق عليهم الباب فلم يجيبوه، فدخل مسرعاً وذهب من فوره إلى المطبخ، وفتش القدر، وأخذ منه قطعة لحم فإذا هي لحم جزور! فصاح به أهل البيت: الحمد لله الذي فشّلك (أي: أخجلك بفعلك) تظنّ أنها شاتك، والله لنشكونك غداً للشيخ والأمير، تتهمنا بشيء لسنا من أهله! فأسقط في يد الرجل، وأخذ يعتذر ويطلب السماح . فلم تسمح نفوسهم بالعفو . فخاف الرجل على نفسه ولم ينم تلك الليلة، ومع الفجر ذهب للهجرة (هجرة خالد والإخوان) وصلّى مع الأمير، وأخبره الخبر، فقال الأمير: دعهم يشكونك، ولا يعلموا انك جئتني، ولا عليك إلا العافية، إن شاء الله .

ولّما جاء وقت الجلسة، مرّ أولئك النفر على ذلك الرجل وقالوا: هيّا بنا إلى الشيخ . فقال: سمعاً وطاعة . وذهب معهم، فلمّا جلسوا إلى الشيخ (القاضي، ولعلّه ابن داود) ذكروا دعواهم ضده، وطلبوا من الشيخ إعطاءهم الحق من خصمهم في دخوله بيتهم بدون إذن، واتهامهم بأمر ليسوا من أهله . فلمّا همّ الرجل بالكلام، أمره الأمير بالسكوت، ثم التفت إلى المدّعين وقال: أنتم يا عيالي لحم الجزور هذا من أين جاكم؟

اشتريتموه من جزّار؟ أخبرونا به . أو مطعمكم إياه أحد؟ أخبرونا من هو . قالوا: سبحان الله! حتى أنت يا أمير تتّهمنا! .

قال: لا بد أن تخبرونا، وإلا جلدناكم . فلمّا رأوا أن الأمر جدّ وأنهم سيُجلدون، اعترفوا بسرقتهم للحم الجزور!.

ومن فراسته وهي عجيبة: "خبر الذهب المدفون":

قال عقاب أبو وطبان السميّ البقمي، وكان من رجال الشريف:

قال لي الشريف حسين: يا عقاب أريدك أن تذهب للبقوم في "قطان" (٨) لعلنا نسبق خالداً عليهم فنستميلهم فيكونوا في نحر خالد دوننا، فخذ معك صاحباً واختر راحلتين من خيار الجيش . قال: فأخذت ابن أخي وكان قلبه على قلبي، وأخذنا اثنتين من خيار الجيش وحملنا معنا جنيهات الذهب الأحمر، فحملناها وركبنا إلى قطان، فلما وصلنا خيامهم إذ ليس فيها سوى النّساء، فسألناهنّ فقلن: الرّجال عند خالد بن لؤي منذ أربع ليال، فتركناهن ثمّ ذهبنا إلى ضُليع في جبل حضن، فأنخنا ثمّ أخذنا قُطَمَ الذّهب ودفنّاه، ثمّ برّكنا رواحلنا على مكان الدّفن حتّى نُعفيَ أثره، وقلت لابن أخي: يا ابن أخي هذه أمانة تبرّأت منها السّماوات والأرض، ونحن سنذهب لخالد ولا ندري ما وراءه! ثمّ انطلقنا لخالد، فوجدناه في عِشَّةٍ في حوقان مقابل قصر الدميجي، إذ لم تُبْنَ بعد عِشّةُ "المناخة" في الهجرة، فأنخنا عليه وقد أحاط به الرّجال وقد أنصتوا للشّيخ عبد الرحمن بن داود وهو يحدّثهم ويعظهم، فسلّمنا عليهم، ثمّ جلسنا ولمّا أنهى الشيخ حديثة قال خالد: عقاب أبو وطبان أرسله الشريف للبقوم، ولم يجد إلاّ النّساءِ وأرسل معه بذهب، والله ليكفينّ الإخوان سنتين أو ثلاث! . فقلت: خف الله يا ولد منصور أنا عقاب أبو وطبان مثل ما قلت، وقد أتيتك بجيش العدو وسلاحِهِ وجئت أبتغي الإسلام . فقال: ماذا تقول يا شيخ والله لو أخذت عليه العصا فضربته ضربتين لأخبرنا خبره، ائذن لي فيه يا شيخ . فقال الشيخ: اتّق الله يا خالد ألم تسمع ما قال؟ . فقال خالد: إيه يا عقاب! سَلِّمُوا عليه يا إخوان، واللهُ أعلمُ به! . قال: ونظرت إلى البقوم فرأيت أنّهم قد

تغيّروا من بعدي وتديّنوا ولبسوا المعامّ، ولّما صِدْنَا منهم غفلة سرينا وتركناهم، ثمّ أسرعنا الخطى للذّهب فاستخرجناه، ثمّ ذهبنا للشّريف وأعدناه له، وقلنا: يا سيدي هذه أمانة قد تبرأت منها السموات والأرض وهاهي بين يديك، وأخبرناه الخبر . وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم) (٩). قال الأول وكأنما عنى خالداً رحمه الله:

إذا ما أجالَ الرأي أدركَ فكرُهُ غرائبَ لم تخطُر ببالٍ ولا فكر

ولا يجمعُ الأموالَ إلا لبذلها كما لا يُساقُ الهديُ إلا إلى النحرِ

ومن تحرّيه وتأنّيه:

في إحدى الغزوات شك في حقيقة القوم الذين أراد أخذهم، فأرسل عيناً له، وقال: ادخل بين القوم وتثبّت لي من حالهم . فذهب الرجل ومشى بين البيوت لعلّه يسمع ما يثبت أو ينفي من أنّهم تركوا الشريف ولم يقوا من جنده. فبينما هو كذلك إذ سمع صوتاً من أحد البيوت بين الأم وابنتها وأبيها، والبنت هاجرة لزوجها قد طمحت عنه(ربّما لقلة ذات يده) وأبوها يقول لها: يا بنيّة زوجك فلان مقلّ، ولكن غداً يذهب للشريف ويغزو معه ويعطيك ويعطيك...) قال فعدت لخالد فأخبرته، فقال: قد علمت أنّهم قوم(أي أعداء) ولكن أحببت التثبّت، فصبحهم وأخذهم .

قال ذعار بن مناحي الشريف رحمه الله تعالى: قال الإمام عبد العزيز: يا خالد يا عصابة راسي؛ بيني وبينك نجد لم ينظف! فجهّز خالد بسريّة، وحينما أقبلوا على "مراغان" عند "حلبان" أمساهم الليل، فقال خالد: انظُرُوا هل ترون أحداً من القوم هنا أو هناك؟ فنظروا فلم يروا أحداً فأمرهم بالنزول فنزلوا . ثمّ قال لهم خالد: احذروا الرّجال فإنّهم سوف يأتونكم جُرداً - أي بلا ثياب - فلا يقتل بعضكم بعضاً، ثمّ وضع أربعة من الحرس يسهرون على حماية السريّة، اثنان في كلّ جهة من جهتي الإخافة، فنام الحرسُ، ولم يشعروا إلّا بإطلاق النّار في الخيام، إذ أن القوم قد هجموا عليهم ليلاً وكانوا عُراةٌ_إلا من جهة العورة_ كما قال خالد! فقتلوا بعض الإخوان على حين

غِرّةٍ،كمحيسن العدواني، وابن مصيبيح من بني عمر، ومغيب، وإذا أميرهم يقول: لقد عرفت خيمة خالد، وهذا المشط سأضعه في رأسه، وأقبل راكضاً لخيمة خالد فإذا منصور بن نايف الشريف، وزامل بن فدغوش، وشلش، دون خيمة خالد؛ فتناوشوه بالرّصاص حَتّى بَرَد .

ثمّ عاد خالد لإمامه عبد العزيز مبشِّراً بِكَسْرِ أولئك القوم، فإذا إمامه قد جهّز له مهمّةً أخرى وقال: فلانٌ ثوّر علينا _أي خرج_ عليك به، فكان يوم البدنة، فقد ثار أحد كبار الإخوان على الملك عبدالعزيز بعد السبلة، فطاردته سريّة خالد بمعيّته أهل الخرمة ومن تبعهم، ولّما توغّل ذلك الرجل بجنده في نجد وأشمل، طاردوه حتّى نفد منهم الماء وكانوا على أمل الورد على عِدٍّ من العدود _وهي الآبار_ لكن لّما أتوه إذ فيه جيف، قيل: إن فلاناً _المُطارَد_ قد رماها في القليب حتىّ يمنع خالداً ومن معه من الماء، ويقتلهم عطشاً .

قال غالب التّويم الشّريف: والله لَآخرُ جيفةٍ أخرجناها، لجيفة كلبةٍ قد يبس جلدها عليها، فلمّا أخرجوها إذ الماء مخضرّ من العفن قد مشى فيه الدّود، وقيل: كان فيها جثّة رجل! وكانوا على شفا هلكة، فأمر خالد بإخراج الجيف، ثمّ أمر بترح البئر ثلاث مرّات حتّى صَفَت، وبقي ريح الجيف عالقاً في الماء، فأمر خالد الإخوان بأكل البصل ودلك شفاههم به، ثمّ أدنى الإناء إلى وجهه وجعل لحيته الطويلة تشخل الماء وتقي فمه من الشوائب، ثمّ سمّى الله وشرب، والإخوان ينظرون فلم يضرّهُ، فشربوا وسقوا خيلهم، ونجّاهم الله من الهلكة بعدما كادوا . ثمّ انطلقوا لِطِرَادِ ذلك الرجل ومن معه حتّى قطّعوهم حدود العراق . وبعدها بسنين عاد ذلك الرجل للملك عبد العزيز تائباً نادماً فأكرمه وقرّبه . وقديماً قال الضبّي: من خشن مقره حسن مفرّه، ولكن هيهات! فأين الفرار للمشركين من الفرار لدار المسلمين؟!.

ونقول فلانٌ حبيبنا ولكن الحقّ أحبّ إلينا ممّا سواه، وأمرُ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم فوق كلّ أمر، وسنّته ألزم علينا ممّا عداها، وهو الذي أمر بدفع صيال البغاة

وقتالهم حتّى يفيئوا للحقّ، والحمد لله الذي ردّه للحق والهدى، والطيب من عُوده لا يستغرب، ولكلّ جواد كبوة، ولكلّ عالم هفوة، ولكلّ عاقل زلّة . والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات كما قرّره شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

وقد قصّ ذلك الرجل -رحمه الله تعالى- قصّته فقال: حينما لَحِقَنَا خالد وأهل الخرمة نهار البدنة، وخيّموا في "مراغان" من دون "عفيف" وتتبّعوا أخبار تحرّكاتنا، وعلموا بمكاننا، فقلت لأصحابي: خيّال العليا نوّخوا عِزّي لقوم لا يطارد شيخها! . فقال أحد من معي وكان قد سكن الخرمة حيناً: يا فلان لا تنوّخ، هؤلاء لا تعرفهم أنا الذي أعرفهم ليس لهم سُؤر، والله لئن نوّخت إنّه لمناخ الفرد والعبود _ممن سحقهم الإخوان سابقاً_ فحذف هذه الكلمة في قلوب أصحابي، فألحّوا عليّ، فهربنا حتّى عدّينا البدنة، ثمّ تفرّقوا عنّي، ووالله إنّ الغالي من أصحابي لهو أوّل من تركني، ولم يبق معي إلاّ القليل، فبقيت أمرٌّ على بعض القبائل، فإذا أقبلت غمّضتُ عينيّ قليلاً كأن بي رَمَدٌ حتّى لا أُعرف، ثمّ ارتحلت مع مَدِيْدٍ من مطير للكويت، ومنها ذهبت لأبي حنيك "الجنرال غلوب" عند الشّريف، فبقيت ثمان سنوات في الأردن وإنّ الدّود ليرعى قلبي من الهمّ، من البعد عن أهل الدّين، وغربة الوطن، فصار حاله كما قال أبو الطيب:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوّاً له ما من مصـــاحبته بدّ

ثمّ أقبلت علينا كُتُب ابن سعود: أنّ من رجع لنا تائباً قبلناه، فأزمعت الرجوع، فنهاني من معي عن ذلك مخافة الغدر، فقلت: الحياة والموت قد استويا عندي! فقدمت فلم أر يوماً أكرهه بعد بحمد الله . وأعلنت ندمي وتوبتي ودخلت عليه في قصره في المربّع كأنّه الأسد بين الحضور، والنّاس قد كثروا عليه والمشايخ . فجلست في طرف المجلس . وبعدما انصرف الناس أقبلت عليه وحيّيته وقلت: السّماح أطال الله عمرك . فقال: التّوبة تجبّ ما قبلها والإسلام يجب ماقبله، ثمّ لم يلتفت لي حتّى أقبل الظّهر، ثمّ خرجنا وصلّينا، ثمّ عدنا وتغدّينا، ولّما انصرفت أرسل لي رسولاً يخبرني بأنّ الملك ينتظرني بعد العصر، ففعلت فلمّا جلست وخرج أكثر من في المجلس سألني: يا فلان أنت حضري

أم بدوي؟ فقلت: كلّ على أصله أطال الله بقاءك أنا بدوي . فقال: تعال إلينا غداً . فلمّا حضرت من الغد إذ بسيارتين من نوع الهاف مملوءتين عن آخرهما من الكسوة والأرزاق والخير. فقال عبد العزيز لمن هم عند السيارات: إذهبوا بها معه حتّى تترلوه ما شاء من المواطن، ثمّ ضعوا له جميع ما في السّيارات، ثمّ عودوا بواحدة واتركوا عنده الأخرى .

بشاشة وجه المرء خير من القِرى فكيف بمن يأتي به وهو ضاحكُ

قال: فذهبنا حتّى أتيت مكان كذا فقلت: هذا مكاني وبنيت فيه هجرة، رحمه الله تعالى. وفي عام (١٣٦٤) كان عند الملك فيصل رحمه الله شاعر الزوران الشهير أحمد بن حمد الأزوري فأراد الملك الشاعر من ذلك الشاعر أن يُرادّهُ ويحاوره بالشعر عن طريق نظم القلطة، فوافق الشاعر لكنه تحرّز لنفسه بدهاء، إذا اشترط الأمان ليقول ما شاء، فوافق الملك، ثم بدأ الملك بقوله _وللأبيات روايات مختلفة وهذا هو المشهور_:

يا حمد اسمع كلام اباالسعود ابن عبدالعزيز الفيصلي

يوم جينا عميت عين الحسود واخذناها بالسيف الآصلي

يوم جينا واذا الديرة مهود كل حاجر يفيض ويمتلي

فرد الأزوري:

مرحبا يا فهد جابك فهود جابك الله وحظك معتلي

أنت خلوك في تال الجرود مافتح بابها الا ابن لؤي

يوم جيتوا من العارض سنود عبدلي اطّرد له عبدلي

مغازيه في الجنوب:

بعد مشاركة سريّة خالد في إخماد فتنة "ابن رفادة" وبعد عودتهم إلى بلادهم، أرسل الإمام عبد العزيز ثلاثين سيّارة؛ للخرمة عشر، ولرنية مثلها، ولتربة كذلك . يطلب كبار البلد كي يكرمهم، وكان الإمام عبد العزيز نازلاً في قصر شِبرا في الطائف . فقال خالد لمرافقيه: لا يلبسنّ أحد منكم مشلحاً (١٠) ولا تحتّوا الغبار عنكم، ولا تضعوا أسلحتكم

من أيديكم، فلمّا نظر الإمام عبد العزيز لهذا التّصرف، قال: يا خالد، أنت تكحِّلنا_أي: تستصغرنا_، أم تنصب_ أي تختال_ عند بنات عمّك الشّرايف؟ فضحك خالد قال: بل أنصب (١١) عند بنات عمي . ثمّ أكرمهم الإمام عبد العزيز وكساهم ثمّ انصرفوا . وبعد أيّام انطلق غازياً غزوته إلى الجنوب وجيزان، الّتي لم يعد بعدها، رحمه الله تعالى .

وحين رجوعهم من عند عبد العزيز قال أحدهم:

مدري نســـافر على البابور والا على اللي لهن حنّه (١٢)
أحدٍ على ركبهم مســـتور وأحـــــــــدٍ فرح يوم مرنّه
يتلن خالد ولد منصـــــور واللاش مـــــــــاهن بيتلنه
وحسين بالمرجلة مذكـــور وابن بعـــيجان ينصـــــــنه

غزا الإخوان بقيادة الأمير خالد بن لؤي ثلاث غزوات للجنوب وضمّوه للملكة السعوديّة، كذلك فقد شارك سلطان بن بجاد في بعضها، ودخل اليمن مع الأمير فيصل بن عبد العزيز حينئذ.

وهناك قال هاضل بن ناجي: (13)

نمشي بحد الهنـــادي في سبــــــيل الله في راي عبد العزيز الميسم الحامي
مهب ترقــــــد عيونه ليلها كـــــــله حُـــرّ على ماكـــره الماكر العالي
من دون بيت الحرم كني على مـــلّة يا هني من يستعي وسطه بالاحرامي

قال مناحي بن غبيشان: حجّ الملك عبد العزيز في إحدى السنين فزاره الإخوان من أهل الخرمة وهو في عشيرة (14) قال فدخلنا وسلّمنا وأكرَمَنا من جنيهين جنيهين، ثمّ قال: كما ترون إنّي ذاهب للحجّ، فمن أراد الحجّ معي فمرحباً وإلاّ فهو في إذن بالرجوع، فقمت أمامه على ناقة لي صفراء وقلت:

يالله ياللي تنثر الماء من الســـماء يجـــيله من غُرّ السحاب دفوق
إنك تثبتنا على ســــــنة الـــنبي وتطعـــمنا في دين الرسول وفوق
تعاهد خالد وسلطان على التقى أمـــراء ضواري هرجهم صدوق

لا رفعوا بأصواتهم ثم هـــــلّلوا ينـــبـــت للقـــلب التقي عروق

فرأيت تغيّراً في وجه عبد العزيز إذ لم أذكره فقلت:

عساك يا عبد العــــــزيز الله يعزك ويذل من يفـــــتق عليك فتوق

اهتزت الأمصار واستسلم البـــحر وعطاك الانجليزي جزيته مطبوق

إمـــامنا قوّاد حمـــر الســـــــــرايا مودع على كبـــد العدو حروق

أنا احمد اللي نصرنا على بني مخلوق

قال: إيه إيه يامناحي .

وقد غزا خالد الجنوب ثلاث مرات، إحداها كان قائداً لسريّة من ضمن ثلاث سرايا لحرب الأدارسة، وعلى الأخريتان محمد بن شهيل وعمر بن ربيعان، ثمّ أردفهم بجيش كثيف بقيادة الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي، حتّى قضوا على حكم الأدارسة. وفي الغزوة الأخيرة للجنوب مرّ برنية، وارتحل معه أميرها الشاعر فيحان بن صامل الشّريف، الذي وصف تلك الغزوة، ورثى قائدها بشعر من أعذب القريض وأجزله، وارتحل معه كذلك ابن غنّام، وجماعة من الإخوان، إضافة إلى كتيبته من أهل الخرمة، وكان في رأسه جرح من المعركة، وقيل: بل كان مريضاً من حين خروجه من الخرمة، ويزعم البعض أنّه أصيب برصاصة من إحدى المعارك، وهذا لم يثبت، والعلم عند الله.

وازداد به المرض، وحينما وصل جيشه أبها، قال له كبار جنده: أقم هنا أيّها الأمير ومن شئت من أصحابك، فبقي بعدهم ثلاثة أيام، ثم لحقهم إذ لم يطب نفساً بالبقاء خلفهم، وأصرّ على مواصلة القتال ضدّ الأدارسة في حرب صبيا حتّى مع اشتداد المرض به في أبها، وحينما نزل من العقبة لم يطق الجلوس على شداده، فتعاقب أصحابه حمله على خشب كالنّعش، فلمّا مرّوا بشعب "البَيْض" بقرب وادي بيش، ازداد مرضه، فنزلوا في بطن الشّعب، وفي الضّحى أسلم الرّوح لبارئها، رحمه الله تعالى سنة: (١٣٥٢) وقد

جاوز السبعين عاماً، وكانت فترة إمارته قرابة الثلاثين عاماً، قد ملأها جهاداً في سبيل الله تعالى .

نُعدّ المشـــرفيةَ والعوالي وتقـــتلنا المنون بلا قتال
ونرتبط السوابق مقربات وما ينجين من خَبَبِ الليالي
نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

ولّما دفنوه جاءهم أمر عبد العزيز بأن ابنه سعداً خليفته في الإمارة .

قال بعضهم معلّقاً على إمارة سعد:

لا غدا خالد سعـــد يمرق بديله مثل حُرّ اصطفق شرق وشامي
مثل سيف الهند ياكل في مشيله في نحـــــــرهم بين مرميِّ ورامي

فسعى بعضهم في إبعاده عن الإمارة لشدّته وسطوته، إذ لم يكن فيه ليونة والده ولكن عبد العزيز ألزمهم بسعد، لعلمه بكفاءته لأعباء الإمرة وقيادة ذلك الجيش، فهو ابن بجدة الحرب، خاصّة في ذلك الوقت العصيب والجيش لا زال في حروبه في الجنوب .

وبعد تكرار بعض الإخوان حتّى من بعض بني عمومته، وإلحاحهم على الإمام عبدالعزيز، أقال سعداً عن الإمرة، فركب إليه سعد وهو غاضب ولما استوى له المجلس عند إمامه قال: أربعة عشر كون - أي غزوة - قد جرّدتُ لك بنودها الحُمُر ضدّ أعدائك، وأَبِي لم تنفضخ عينه في قبره بعد، حتّ أخمدت لك الجنوب بعدما كان يفور، وهذا جزائي منك! فقال الإمام عبد العزيز: أنا أخو نورة وش ذا الكلام؟ فقال: وأنا أبو نورة أقول الّذي سمعت . فكظم الإمام عبد العزيز غيظه رحمه الله تعالى، فالملوك لا يرضون الاعتزاء أمامهم، وسعد قد اعتزى أمامه، فحلم عليه وحفظ له سابقته، ولما خرج سعد قال الإمام لمن عنده: لا تعجبوا، فهو قول وفعل! وأعاده للإمرة بعدما توجّس محبّوه من فتك الإمام به، وقد توفّي الأمير سعد سنة: (١٣٨٥) رحمه الله تعالى .

ومن باب ذكر الشيء بالشيء؛ فيُروى أنّ الأمير فيصل بن عبد العزيز _ الملك فيما بعد _ لّما فتح الحديدة ومعه جموع الإخوان، ذهب كبير من كبراء اليمن ويُسمّيه الإخوان: أحمد حنّة، إلى الإمام عبدالعزيز، وقال: إن أخذتم الحديدة فخذوا اليمن كلّه فهي عصب اليمن وميناؤه . ثمّ دارت المفاوضات حتّى ردّ الملك إليهم الحديدة، على أن يسلم اليمن نجران للإمام عبد العزيز، وعلى أن يسلم كذلك الأدارسة الذين كانوا عنده. في شروط أُخَرَ، واعترض الأمير فيصل على تسليم الحديدة، وقال فيما يُروى: لئن أعطيتهم الحديدة لأقتلن نفسي! فقال الإمام: إن قتلت نفسك فأنت في النار (١٥) وأبنائي سواك أربعون، وأمّا اليمن فلا نريد حرمانهم من مصدر رزقهم، وقد أخذنا نجران .

ومما رُثِي به رحمه الله تعالى:

ممّا قيل في الأمير خالد إضافة لما ذكرنا في تفاصيل المغازي: رثاه الأمير فيحان بن ناصر بن صامل الشريف أمير رنية بقصيدتين رائعتين، تحكيان ملحمتة رحمه الله، وهاتان القصيدتان إحداهما بالعربي الفصيح، والأخرى بالعاميّة الدّارجة، وقد أحسن في الاثنتين، فلّله درّه من شاعر مصقع، ومجاهد وفيّ .

قال في داليته الشهيرة:

لك الحمد يا مولاي يا ذا المحـــامد على الســـرّ والضرّاء في كل وارد
فجعنا فسلمنا بما كان قد جـــــرى لموت الهـــمام الشهم غيظ المعاند
لقد ساءنا شخص على البَيْضِ قد ثوى رجـــــعنا فخلفناه في القبر واحد
فيا قبر فيك الجود والدين والنـــدى تضـــمّنه أضلاع الذي فيك راقد
وإني لبـــاك ما بقيت وذاكـــــر مآثر شيـــــــــــخ مجده متزايد
وإني لبـــــاك ما بقيت وذاكـــر كـــريم المســـــاعي فضله غير نافد
وسيّد حي من لؤي بن غـــالب ســـــــــلالة أسياد كرام أماجد
فبتُّ قـــــرين الحزن والهم ليلتي وقد أخضـــبت خدي دموع شدائد

يقول أناس هالهـــــم كثر عبرتي أصابك جن أم من الموت شـــارد؟
فقلت لهم لا ذا ولا ذاك صابني ولكن أصيب القلب من موت خالد
تقوى بدين الله والـــتزم الهدى ونال العـــــلى والفخر يوم التجالد
صـــبور على حلو الليالي ومرها ومسعـــر حرب يتلف النفس ماجد
له فتكات في الأعادي شهـــيرة فدونك منـــها في رمـــادان شاهد
ومنها بجبار فالقرين ومثلـــــهـــا على الحـــنو منها شاكر فر شارد
ومنها بأطراف الحجاز وقائــــع علـــــيهن في كل البلاد شواهد
ولا تنس يوم الطائف الذي كان بعده طوافـــك حول البيت لله عابد
وتنشره أم القرى في صحافـــــها وتنــــــقله عنها جميع الجرائد
وقائد جيش من سبيع عرمـــرم وقامـــع أهل الكفر من كل مارد
وفيهم من الأشراف كل مجـــرب بأيديهم صـــــــنع عديم الفوائد
لقد حاز فخر العقل والمجد مذ نشا وجمــــع شراد المعالي الشوارد
وقامع حق النفس في شهـــــواتها ولو حـــل في العالين فوق الفراقد
سيبكونه الفقراء من بعد ما مضى لقـــد كـــان ذخراً لهم في الشدائد
وتثني له الخرمة بكاها وشجـــوها ونســــواتها تبكي وأهل المساجد
وإني لأرجو الله جل جــــــلالـــه يذيـــق العـــدا من نسله في الموارد
وما هو إلا فرع خارج من أصوله وهـــل تلـــد الأجواد إلا الأجاود
وهل تنبت الأشجار إلا غـــصونها ونســـل الأفاعي مثلُها في الأساود
فيا راكبين العيس من كل ضـــامر مـــوصـــلة الجدين تطوي الفدافد
إذا ما رأت شخص الزميل تخـــالها تفـــر كأمثـــــال النعام الشوارد
صهابية العثنون وجنــــــاء حائل وتشـــرد كالسكران إذ ظل شارد
تمل هداك الله مني رســــــــالة إلى خير من يجلس متكي عل المساند
إمام الهدى عبد العزيز أخو الندى مذيـــق العدا كأس الردى في الموارد

أما قصيدته الأخرى فهي:

أول بادي مانقـــــــول صـــــــلاة على الرســـــول

عدد من لزم الحــــــجول يطــوف بالبيــــت الحـــرام

والـــثاني جانا نضـــــــــاد بكتـــــــاب فيه الجهـــــاد

قربنا جيش جـــــــيـــــاد يشـــــــبه لجول الــــــنعام

ما شري من بيــــــت المال مـــخــــتارينه في الـــــحلال

ركبه شيـــــبان وعيــــــال بامـــتـــــثال أمر الإمـــــام

أول زهـــابه في بيـــــــشة أربعة أريل من العيشـــــــــة

تقدم خالد في جـــــيـــــشة مـــتـــــغانم أبها قـــــدام

ما قصـــر عبدالوهــــــاب أبرق لهــــم في الــــــزهاب

أظـــهر مدحه يالنجــــاب إذا لفــــــــــــيت الإمام

ملفانا في أبها عــــــــــسير صـــــــخن عـــــلينا الأمير

رضـــــينا بأمر القديـــــــر تــــــسلــــــيم لأمر العلام

وبعد مانــــــــزلنا البيــــض تـــــــــوفي ذاك الــــــمريض

والدمـــع مني يفيـــــــــيض مــــــن مـــوت الليث الصمصام

يا قبر ياللي ملـــــــــحود دفن فــــــــيك معدن الجود

ومدبر حمــــــر الجـــــرود موته ثـــــلم في الإســــــــلام

وقايعه في الكـــــــفــــــار ما تـــخــــــفى مثل النـــهار

جعـــله يـــــنجا من الـــنار يســــــكن مع حور الخيام

فــــنه غيث لليتـــــــمان يـــجري مصــــروف العميان

يـــخفي عطايا الإحســـــان ويصــــــــلي والناس نيام

في قصـــره حسو الرجــــــال ينـــــقــــض ملوي الحبال

أقـــول إنه في الرجــــــــال مــــــثل القـــمـــر في الظلام

يــبكونه رجال ســــبــيع لا جــا الــــدهــر مابه بيع

كــــم قد هجا من جويــع بالشـــــــحم فوق الطعام

يـــــبكونه أهل الإســـلام والمــــشـــــايخ والإمام

والأرامــــــل والأيتـــــام والخـــــــــــرمة تبكيه اشمام

الى ذكر بالخير خــــالـــــد يكــــتب في التاريخ مجاهد

غـــيض الكافر والمعـــانـــد واللـــــي يرتـــكب الحرام

ذا قليــــل من كثــيـــــر من مناقـــــــــب ذا الأمير

اللي في العـــــالم شهــير وشــــــــهودي كل الأنام

فلـــــما مات بعده عيـــال ليث من نســـله أشبال(١٦)

رحم الله الأمير خالد ولا أقول فيه إلا كما قال أبو تمام:

ألا أن في كف المنية مهـــــــجةً تظلُّ لها عين العُلى وهي تدمعُ

هي النفس إن تبك المكارمُ فقدَها فمـــن بين أحشاء المكارم تُترع

"مشايخ الإخوان في الخرمة"

منهم الشيخ إبراهيم الحِجّي الهذلي (بن حجي) الّذي كان يعلّمهم القرآن الكريم، وكذلك سليمان الحجّي، ومن المشايخ راشد بن عوض، أمّا القضاة فقيل إنّ أوّل من جاء للخرمة منهم هو الشّيخ عبد الرّحمن بن عبد العزيز الرّشيد العجمي (بن رشيد). وكان صغير السّنّ حين قدم للخرمة، قيل كان قاضياً، وقيل بل واعظاً مرشداً والثاني أقرب . وقد قدم معه أخوه الأكبر العلّامة محمد الرشيد فقد أتى معه في بدء أمره للاطمئنان عليه، وكان أبوهما عبدالعزيز الرشيد قد قتل في وادي الرّمة في طراد الخيل بعد معركتي البكيريّة والشّنانة وكان من الفرسان البواسل، ويقال إنّه كان أوّل قتيل من جيش الملك عبد العزيز في الرّمة لّما كانوا يطاردون خيل ابن رشيد والأتراك الذين معه (١٧) ومات وترك هذين الابنين الّذين سافرا من الرّس إلى الرياض مشياً على أقدامهما

لطلب العلم! فكانا يقرءان مع جملة من الطلبة على عدد من المشايخ لكل فنّ شيخ، الأصل على عبد الله بن عبد اللطيف، والفقه والنحو على حمد بن فارس، والفرائض على ابن راشد، وحصّلا علماً غزيراً، حتّى قدم إلى الملك عبد العزيز وفد من الخرمة، فيهم عبد المحسن بن شاهين الشريف، واتّفق بهما أعني الشّيخ محمداً وأخاه عبد الرحمن، عبد المحسن بن شاهين عند أحد الأصحاب، رحم الله الجميع، وهو لا يعرفهما، فختم المجلس عبدالرحمن بقراءة شجيّة، فسمع قراءته عبد المحسن بن شاهين، فأتاهما وطلب من عبدالرحمن أن يأتي معه إلى الخرمة داعياً إلى التّوحيد، ومعرّفاً معلّماً له، وطلب من الملك أن يطلب منه ذلك، فكأن الملك عبد العزيز تصاغر سنّه، فقال عبد المحسن: نحن البادية كإبلنا تَحُنُّ إلى الصوت الجميل وتتبعه! وطلب من عبد الرحمن الذّهاب والنّقلة والسّكن معهم، فمال عبد الرحمن إلى ذلك، فسمح له أخوه الأكبر محمد، فأتى معه في البداية حتّى يطمئن على بقيّةِ والده وهو أخيه الأصغر عبد الرحمن، وأقبلت عليه قلوب الراغبين إلى ما دعا إليه من التّوحيد والرّقائق والزّهد في الدّنيا، والتّفقّه في الدّين، وحسن الخلق، والرّحمة بالخلق، وغير ذلك وتأثر به الأشراف والسّبعان من أهالي الخرمة، ومن جاورهم، وتزوّج أمّ أولاده من القريشات من سبيع، فلمّا أقبلت ثورة الرِّمَايةِ للحرب والفُرقان بين أهل الحقّ والباطل، وسمع بها أخوه محمد جاء إليه ليأخذه ويرجع به خشيةً عليه، فلمّا وصلهم وهم في البرّ، وتبيّن لهم مقصوده، وذكر له أخوه محمد مراده، إذا هو راغب ومرغوب، فقال لأخيه محمد: أنا على ما ترغب إن رغبت رجوعي معك وإن رغبت بقائي ولا أخرج عن رغبتك . وقال لهما الّذين هو معهم من الأشراف والسّبعان: والله لئن ذهبت به لا يتأخّر عنه واحد منّا! لنذهبنّ معه لأيّ جهةٍ يتوجّهُ إليها! فلمّا رأى أخوه محمد ذلك رجع، وبقي عبدالرحمن مع الأشراف والسبعان ومن جاورهم، ثمّ نزل في حوقان لأنّ حوقان هو مترل الإخوان، وسائر الخرمة ومن خالطهم إلاّ القليل مع الشريف حسين والي مكة شرّفها الله، وعبد الرحمن على ما هو عليه من القراءة والدّعوة ومحبّة المحبين له، ولم تزل قلوب أهل البلد ومن جاورهم من سائر القبائل على تقديره

ومحبته وعدم مخالفته فيما يأمرهم به وينهاهم عنه، فمن ذلك أنّه إذا سمع أنّ أحداً منهم جرى بينه وبين أحدٍ اختلافٌ وشقاقٌ وتنافسٌ في أيّ شيءٍ، فإن كان قريباً منهم مشى إليهم، وإن كان بعيداً ركب حماراً وجاءهم، فإذا وصل إلى القريب أو البعيد اسبشروا به وفرحوا، فإذا تكلّم معهم امتثلوا ما أمرهم به، واجتنبوا مانهاهم عنه، بدون مراجعة لقوله، وزال ما في نفوس بعضهم لبعض وكانوا كأن لم يكن بينهم شيء .

وكان هو كما ذُكر بعاليه رحمه الله حتّى توفّي راجعاً من الحج، أصابه مرضُ وفاتِهِ نهار خروجه من مكة واشتدّ عليه مدّة سفره للرجوع، ووصل إلى أهله، وهي زوجة ثانية أيضاً من القريشات، تزوّجها رحمه الله بعد وفاة زوجته الأولى أم أولاده، وتزايد عليه المرض، وكان أهله في شعبٍ من ضواحي البلد حتّى توفّي فيه، ودفن فيه وسُمي الشِّعب باسمه "شعب ابن رشيد" وكانت وفاته رحمه الله آخر شهر الحجّ عام (١٣٥٤) (١٨) وتوفّي وهو شاب في الخامسة والثلاثين من عمره القصير المبارك، فلمّا توفي قدم أخوه محمد وباع النّخل، وأخذ ابنه عبد الله ورجع الى بلده "الرّس" .

ومن سيرة عبد الرّحمن في مدّة حياته أنّه كان يصلّي كلّ جمعة إذا كان في البرّ في جامع البلد صلاة الجمعة، وكان يعتكف في كل عام في رمضان، وكان ذا خلق جميل، يأسر الناس بحسنه ودماثته وسعة صدره وجميل أسلوبه وحلاوة منطقه رحمه الله تعالى . انتهى بتصرف بسيط من خط صهره الشيخ محمد بن سليمان الدميجي (١٣٣١_ ١٤١٥) رحمه الله تعالى .

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقوام

ولّما علم الشريف بوصول عالم من علماء نجد إلى الخرمة وهو عبدالرحمن بن رشيد، رحمه الله، غضب وقال لشرطته: من رأيتموه في مكّه من أهل الخرمة فأتوني به . وكان محمد الطويل العبيسي قد قدم مكة لشراء بعض الطعام ومعه خويّ له من بني ثور من آل مرقب . قال محمد فيما يرويه عنه أخوه سيف رحمهما الله: فلمّا تجهّزنا للخروج إذ برجال الشريف معنا، فأخذونا إليه . فقال محمد: يا أبا علي نحن عيالك من أهل الخرمة،

قد اشترينا بضاعة ونريد السفر إلى أهلنا، ورجالك قد منعونا من ذلك . فقال: نعم يا عيالي؛ أنتم جاكم نجس! أرأيتك إذا كان عندك ماء طاهر ثم سقطت فيه نجاسة، هل تشرب أو تتوضأ منه؟ والله لولا قبر عمي ماضي عندكم في حوقان لأفعلنّ ولأفعلنّ! فأخذ يزبد ويرعد ويتوعد ونحن نهدئه ونقول: لا علم لنا بما ذكرت، ونحن في السوق، ولا علاقة لنا بأهل حوقان، فأذن لنا بالخروج بعد ذلك .

ومن مشايخ الإخوان القدامى القاضي دحيّم بن ناصر آل حسين، من وادي الدواسر كان في رنية، وكان يأتي للخرمة للإخوان .

وكذلك أخوه إبراهيم بن ناصر آل حسين، الذي كان مقيماً في الخرمة وكان له مواقف عظيمة مع الإخوان، بل ربّما هو الأبرز على الإطلاق من مشايخ الإخوان كافّة الّذين كانوا في الخرمة، وهو كما يقال: الشّيخ الفارس(١٩) وقد عُيّن قاضياً من قبل الشريف الذي عزله فيما بعد، وقد غضب الشريف على الشيخ إبراهيم بن حسين لأنّه كان يدعوا للعقيدة السّلفيّة، وسجنه سنوات حتّى توسّط له خالد بن لؤي، والشّيخان إبراهيم وأخوه دحيّم من وادي الدّواسر، وطلبا العلم في نجد على يد علاّمة ذلك الزمان خالهما سعد بن حمد بن عتيق، وكان أهل الخرمة يدينون في العِلْمِيّات والمعتقد بالدّعوة السّلفيّة، وفي العمليّات بالمذهب الحنبلي، على طريقة أهل العارض، ولما عزل الشريف الشيخ إبراهيم طلب منه خالد إرسال قاض بديل فرفض، ووجهه لسلوم الآباء والأجداد الطّاغوتية! وقال: احكموا بسلوم آبائكم وأجدادكم، وبعد تمكّنِ الإخوان أرسل الشريف من قِبَلِهِ قاضي الضِّرار بعد قوّة شوكة الإخوان حتّى يأخذ له البيعة، ويكون قاضياً للإخوان لكنّهم طردوه .

ومن أخبار الشّيخ ابراهيم بن ناصر بن حسين؛ أنّ أحد أعيان الخرمة وهو نائف بن منصور وهو أخٌ للأمير خالد طلّق زوجته ثلاثاً على غضب، فاستفتى الشيخ إبراهيم فأفتاه أنّها قد بانت ولا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره، فراجعه أنّه طلّقها على غضب، فأبى الشّيخ تحليلها له، فطلب منه أن يكتب لخاله الشّيخ سعد بن عتيق في الرّياض

بالمسألة كتاباً، فأجابه وكتب له، وكانت هذه القصّة في الشّهور الأُوَلِ لتديّن الإخوان، وقد افترق الناس ولم يفصل بعضهم من بعض إنّما هو توجّس وحذر، فلمّا أصبح نائف سافر للرّياض، ومضى للشّيخ سعد بالكتاب، فلما فضّه غضب وطرده من المجلس، وقال: الشيخ إبراهيم حرّمها عليك، وجئتني من أجل أن أحللها لك! . فقام من عنده، فلمّا أصبح دخل على الإمام عبد العزيز وقال: إنّ لي عندك حاجة . قال: أبشر إن كنت أقدر عليها . قال: تستطيع ذلك، أريدك أن تلزم الشّيخ سعد بالفتيا في مسألتي . فأرسل الملك للشيخ أحد رجاله وقال: قل له: يسلّم عليك الإمام ويقول: من حقّي عليك أن تفتي نايف في معزّبته، أي زوجته، أهي حلال أم حرام؟ . فلمّا دخل الرّجل وسلّم وبلّغ سلام الإمام، قال مرحباً وسمعاً وطاعة ماذا يريد الإمام؟ قال: يريدك أن تفتي منصور في معزّبته أهي حلال أم حرام؟ . فتغيّر وجه الشّيخ وحوقل وحسبل، ثمّ اتّكأ على الجدار وقال: أُدخل يا نايف فدخل . وقال: أخبرني بطلاقك . فلمّا أخبره واستظهر نطقه للطّلاق وحاله ووقته . قال: يا معشوق _ خادم عبدالعزيز _ هذا الرّجل لا أريد أن أراه مرّة أخرى، وتجد الجواب صباحاً عند الإمام . ولّما فتح كتاب الشّيخ وإذ فيه: إلى المكرّم ابن أخي إبراهيم بن الحسين .....بعد السّلام، أمّا بعد: رُدِّ عليه زوجته إذا رضيت بعقد جديد، واحتسب ما مضى طلقة واحدة .

ومن أخبار الشيخ إبراهيم كذلك، أنّه لّما مَرَّ ركب عقيل من جهة الشّريف، دخلوا المسجد الجامع يوم الجمعة، وبعد الصّلاة صعد المنبر أحدهم وهو العسّاف، وقرأ ورقةً من قبل الشريف، وفيها: أنّ سوق الخرمة كأسواق مكّة وجدّة والطّائف لا يُستنكر فيه الدّخان ولا غيره! . فلمّا نزل صعد الشيخ إبراهيم بن حسين، وكان عالماً فارساً يقود حُمْرَ السرايا، فلمّا استوى على المنبر نَقَضَ كلّ ما أتى به مرسول الشريف بالأدلة، ثمّ نزل . وبعد زمنٍ أرسل الشريف من يأخذ له البيعة من أهل الخرمة وألزمهم بذلك _ أو أنّها في نفس المرّة _ وكان ذلك في بدايات التديّن وشوكة الإخوان لّما تشتدّ، فأخذ زمام المبادرة الشيخ إبراهيم وقال للإخوان: كونوا معي وسيفرجها الله . ثمّ قال لمندوب

الشريف: نبايعه على الكتاب والسنة . فقال المندوب: إنّ الشريف على الكتاب والسنة. فقال الشيخ: إن كان عليها فالله ربّنا وهو إمامنا . ثمّ التفت للإخوان وقال: ألا ترون أنّ الله فرّجها، فما دام على الكتاب والسّنة، فلا يجوز الخروج عليه، ولكن أفعاله ليست عليهما.

ومن أخباره كذلك: أنّه لّما اشتد عُودُ التدّين في الخرمة، وانتشر في النّاس، طلب منه الإخوان أن يساعدهم في بناءِ مِسْهَرٍ لهم (٢٠) وكان قد كَبُرَ وضَعُفَ فحمل الطين على رأسه ، ولّما تعب استأجر بديلاً عنه عاملاً يكفيه يقال له ابن مونس ، ثمّ قالوا : أنشد ياشيخنا. فقال :

ما ذكر في الكتاب والسـنة كود تسـبيلة قدام

وينك ياللي تريد الجـنّة التزم ذروة السـنام

ومن مشايخ الإخوان الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن داود، شيخ الإخوان حين دخلوا مكّة شرّفها الله، جاء للخرمة من الرّياض في بداية الجهاد، وقيل بل بعد تربة، وكان شيخاً جليلاً مُهَابَاً حكيماً مربّياً عابداً، وتوفّي سنّة الحمّى فأصابته الحمّى الوبائية في تلك السّنة: (١٣٥٦) فتوفّي، وكان ابنه محمد مريضاً بنفس المرض فأتاه من أخبره بوفاة أبيه ففاضت روحه فَدُفِنَا في وقت واحدٍ، رحمهما الله تعالى .

نزف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغـيرك دمعها مدرار

من ذا يعـيرك عينه تبكي بها أرأيت عـيناً للبكاء تعار

وكان برنامج الشيخ عبد الرحمن بن داود اليومي، وتأمّل مَصْنَعَ الرجال والقادة:

أنّه كان يقوم إذا انتصف الليل أو قبله بقليل، فيتوضّأ ويطيل الوضوء لأنّه كان مصاباً بمرض الصّدر، فيكثر السعال ويظلّ قرابة نصف ساعة على وضوئه من شدّة السّعال، ثمّ يَصُفّ قدميه لصلاة الّليل، وفي هذه الأثناء تكون زوجته حسناء العايد، قد أيقضت الطّلاب الّذين كانوا يسكنون مع الشّيخ في بيته مُلازَمةً لشيخِهِم، ومنهم محمد الدميجي، وصالح الفريج (٢١) في ثلّة من طلبة العلم، ثم يُخرج لهم القهوة والهيل من

جبية، ويتابع صلاته، والتّلاميذ بين قراءة وصلاة، وشيخهم قد نصب قدميه كالخشبة في ربعته يصلي صلاة طويلة، ثمّ يقبل عليهم عند المقهاة فيصبّون قهوته وهم معه، ثمّ يأمر ابنه محمداً فيقرأ عليه من حفظه غيباً قرابة ثلاثة أجزاء، حتّى أنّ الصّبيّ ربّما قرأ الجزء التّام وهو نائم من طول قراءته ودقّة حفظه، ثمّ يقومون إلى صلاة الفجر، وبعد الصّلاة يقعد في مصلّاهُ بين ذكر وقرآن حتّى ارتفاع الشمس، ثمّ يدخل بيته قرابة نصف السّاعة، ثمّ يجلس في بيته وقد اجتمع الناس، ويقرأ عليه الطّلاب متون العلم، ويبدأ درسه بشرح الزّاد ومعه نسخة مخطوطة لها أكثر من مئة سنة نُسخت بخطّ جميل وعليها حواش كثيرة، وأحياناً يقرؤون في المطوّلات، ويحضر الأمير مجلسه في الرّبعة ويستمع مع النّاس، وعند السّاعة الرّابعة ضُحىً (٢٢) يستأذنه الأمير للقهوة، فيذهبان لقصر الحكم فيقضي بين الخصوم إلى قبيل الظّهر بنصف ساعة، فيدخل بيته إلى الأذان فيخرج للصّلاة، ثمّ يجلس في المسجد لجرد المطوّلات عليه من قبل تلاميذه، بعدها يدخل بيته ويُلقي دروساً خاصّةً على كبار المجاهدين؛ أمثال صايل بن عيد، وعبد المحسن بن شاهين، في آخرين من مبرّزي الإخوان وقيادييهم، ويظلّ معهم إلى العصر، وبعد العصر يكون موعد العشاء، لا سيما إن كانوا مدعوّين لمناسبة فيذهب بمعيّةِ الأمير إليها، حتّى المغرب . وبعد المغرب تكون في بيته دروس في المطوّلات إلى صلاة العشاء، ثمّ يعود إلى بيته بصحبته تلاميذه، فيقرؤون عليه الفرائض والنّحو إلى قرابة السّاعة الرّابعة مساءً (٢٣) ثمّ ينصرف لأهله ومبيته إلى منتصف الليل ، رحمه الله تعالى .

وكان الشيخ ابن داود وأربعة من المشايخ من بعده وهم الشيخ إبراهيم بن سليمان الراشد (ت: ١٣٧١) والعلّامة فيصل بن عبدالعزيز بن مبارك،صاحب المختصرات المشهورة (ت:١٣٧٦) والشيخ محمد بن عبدالعزيز الرشيد (محمد بن رشيد) (ت:١٣٩٥) والشيخ عبداللطيف بن إبراهيم، هؤلاء المشايخ الخمسة كان لهم إسهام قوي ودور مهم في نشر العلم في الخرمة . (٢٤) وقد تخرّج من هذه المدرسة المباركة، أو

بالأحرى الجامعة؛ ثلّة من طلبة العلم، وإن لم يكونوا معدودين من الإخوان لكنهم تربوا على أيدي مشايخهم، وانتهجوا نهجهم، وقد نفع الله بهم، ومنهم:

الشيخ سعد بن عبدالعزيز الحلّاف (مطوّع السوق) الذي كان مفتي الخرمة في زمانه، وإمامها وخطيبها في الجمع والأعياد والاستسقاء، وعاقد الأنكحة، وعضواً من أعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رحمه الله تعالى (٢٥).

ومنهم: الشيخ سعد بن علي التويم، الذي شغل منصب القضاء في تثليث، ثم في الخرمة، ثم في رنية حتى توفي بها رحمه الله تعالى، وقد كان بالإضافة إلى القضاء؛ مفتياً وواعظاً ومرشداً في البلدان التي تعيّن فيها، وكان للخرمة أوفر الحظ من ذلك عندما يأتي إليها في صيف كلّ عام . وكان من الذين يقرؤون عليه؛ الشيخ يوسف بن صالح العبيسي رحمه الله تعالى .

ومنهم: الشيخ محمد بن سليمان الدميجي المشرّفي التميمي (مطوّع الهجرة) الذي كان له دور كبير ونافع في الهجرة وحوقان وما حولهما، وكان إماماً وخطيباً لجامع الهجرة وله دروس ومواعظ في هذا الجامع ما بين أذان العشاء إلى الإقامة كلّ ليلة، وقد عيّن عضواً في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بداية تأسيسها، ثم استقال منها خشية المسؤولية (٢٦).

ومنهم: الشيخ صالح بن عبدالله بن فريج الناصري التميمي، الذي كان قاضياً في ظلم والدفينة ونِفِي والحنابج، وكان مجلسه عامراً بالعلم، ومعطراً بالسيرة النبوية، وقد نفع الله به في إزالة كثير من المنكرات في ظلم والدفينة إبّان وجوده فيهما، كما توسط عند الحكومة وبعض الأمراء لبناء مساجد كبيرة؛ كجامع الأمير سلطان في عفيف، ومسجد الدفينة القديم، وحفر بئر حكومية للشرب على نفقة الملك سعود رحمه الله . وكان للشيخ صالح دروس يومية في جامع الأمير سلطان بعد الفجر والعصر، وبين أذان وإقامة العشاء، إضافة لإمامته وخطابته له، ولمصلى العيد والاستسقاء في عفيف .

ولا يزال الشيخ صالح وحتّى كتابة هذه الأحرف مستفاداً منه في الفتاوى عبر الهاتف، وفي دروس مسجد الحي الذي يسكنه في الرياض حاليّاً، أطال الله في عمره على طاعته، وأحسن له وللقارئ وللكاتب الختام (٢٧).

وممن أفادوا البلد في التعليم الشيخ ناصر بن حمد الراشد، وسعد بن رشيد، وسعد بن عبدالله الحجي، وعلي العدواني، ومحمد الحميدي، كلّ هؤلاء في مرحلة الكتاتيب، قبل إنشاء المدارس النظامية عام: (١٣٧٠) رحمهم الله جميعاً .

ومن مشايخ الإخوان في غير الخرمة، الشّيخ ابن بليهد شيخ إخوان حرب في القصيم، ومحمد بن عثمان الشّاوي الدّهيمي البقمي صاحب كتاب "القول الأسدّ" وصاحب القصيدة المشهورة في دخول الإخوان لمكّة وقد كان معهم حينها، وغيرهم مشايخ كثر رحمهم الله تعالى ورفع منازلهم في عليين.

كذلك فقد ذكر علي الناقول وذعار بن مناحي رحمهما الله أنّ العلاّمة الشّيخ سعد بن حمد بن عتيق (٢٨) كان مع الإخوان في معركة تربة، والله أعلم.

متى رُفِعتْ لها بالغور نار وقرّ بذي الأراك لها قرارُ
فكلّ دمٍ أراق السيرُ منها بحكم الشوقِ مطلولٌ جُبارٍ

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

إبراهيم الدميجي

٢١/ ٣/ ١٤٣٣

@aldumaiji

(١) ولعل هذا التاريخ: (١٢٠٦) هو أول نزول الأشراف الخرمة على أهلها السبعان، وربما أن الأمير لؤي بن غالب قد صحبه بعض قومه الأشراف من آل لؤي كعبدالله أبو شوارب بن لؤي – جد خالد لأبيه – وماضي بن هزاع بن لؤي – جد خالد لأمه، ويقال إنّه عمّ للملك حسين – ولعل ممن قدم معه كذلك صالح الحارث – أبو محمد وجد ناصر وغزاي وغازي – كذلك فقد أتى معه أخوه صامل، ويذكرون كذلك رجلاً يقال له زامل بن لؤي، ويقال إنه من أوائل الأشراف نزولاً الخرمة، وقد يكون نزولهم الخرمة قبل هذا التاريخ، والله أعلم .

(٢) الوطاة: مَحِلّةٌ صغيرة في أسفل وادي سبيع تبعد عن الخرمة قرابة ثمانية أكيال شرقاً .

(٣) القنصلية: ماء لسبيع القريشات من أهل الخرمة، شرق الخرمة بمسيرة يومين قاصدين تقريباً، وهي الّتي كان فيها عبد العزيز بجيوشه لحظة وصول البشير إليه بفتح تربة .

(٤) مجافر البنادق: مضارب الرّصاص .

(٥) ومن أخباره رحمه الله:

يُقال: كان في الخرمة رجل مصاب بمرض عصبي ينتابه بين الحين والآخر، وذات يوم تشاجر مع أحد أقاربه وضربه، فأمر الشيخ بسجنه، و لم يأمر بضربه مراعاة لحالته النفسية. كما قيل: (مجنون وطِقّ بعصا). وبعد انتهاء مدة الحبس أُطلق، فمرّ بالأمير سعد وهو في مجلسه، فقال: إيه يا سعيدان، تعرف تحبس الرياجيل! فقال الأمير: ردّوه . قال الراوي: فظننا أنه سيضربه أو يسجنه مرة أخرى . ولكن الذي حدث هو عكس ما توقعناه، فقد دخل الأمير بيته وجاء بثوب وعمامة، وقد وضع في طرفها قهوة، وفي طرفها الآخر بهار، ومعها (ثلاثة أريل فضة) أي: ريالات، ثم قال: هاتوه، فلما حضر قال له الأمير: أنا ما حبستك، لكن اللي حبسك الشيخ لاعتدائك على ابن عمك، ولكن هذي كسوتك وقهوتك وشرهتك . فقام الرجل وقبل رأس الأمير، وقال: الله يخليك لنا ياابو نايف . فلما ذهب، قال أحد الحاضرين: يا لأمير: هذا مجنون . قال: خابر، حنّا ما ذبحنا إلا المجانين! والا العاقل بيرده عقله عنّا . (ادفع باللتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

ومن أخباره رحمه الله: ما رواه محمد بن الحسين الشنبري الشريف رحمه الله، قال: اعتمرنا مع الأمير سعد رحمه الله سنة من السنين،في يوم: (٢٦) من رمضان، فدخلنا مكة بين المغرب والعشاء، ليلة: (٢٧) محرمين ملبين، فلما توسطنا في الحرم، وقف الأمير وقال: يا محمد بن الحسين، يامحمد بن بعيجان، يافلان، ويافلان: أليس هذا المكان هو أشرف مكان في الدنيا؟ قلنا: بلى . قال: أليست هذه الليلة هي أشرف ليلة في السنة؟ قلنا: بلى . قال: فإنّي أُشهدكم بأن فلاناً وزوجته وعياله عتقاء لوجه الله تعالى . فقال أحد الحضور: لا يالأمير لكن أعتق بعضهم واترك بعضهم . فقال: اسكت، فإني في حرب مع الشيطان منذ هممت بهذا الأمر، فلا تعنه عليّ! ثم قال: واشهدوا أن عرينين من نخلي الدوّار مسقمات . (أي تسقى دون أن يؤخذ من ثمرها شيء مقابل ذلك،

والعرين ويقال له الشطيب: هو الصف الممتد من النخل من أول البستان لآخره) فلعلّ الله أن يعتقه من النار لإعتاقه لهم، ومن أعتق مملوكه أعتق الله كل عضو منه بكل عضو منه .

وفي سنة مجدبة قل فيها الحافر، مر أحد كبار الدولة ويقال له الجبرين معه بعض المسؤولين بخيمة سعد في الفلاة وقد أصابهم الجوع وهم في طريقهم من الرياض للحجاز، فاستقبلهم أحد مماليكه فرحب بهم وقرّب لهم كبشاً سميناً، فلما وضعه بين أيديهم قال: حياكم الله عند عمّي اللي إذا حضر كفانا وإذا غاب وصّانا، فدخلت كلمته إعجاب ابن جبرين فما زال يرددها حتى وصلوا الحجاز، ويقول: هذا المملوك، أجل وشلون سيده؟!.

ومن شدة بأسه في الحرب وإقدامه فقد وُجد في مقدم جسده بعد معركة الخرائق تسع مضارب للرصاص ليس فيها واحدة من خلفه، وليس على أعقابنا يقطر الدمُ.

ويُروى عن الملك فيصل رحمه الله تعالى أنّه قال ذات يوم: لم نحكم الخرمة حقّاً حتّى زال عنها سعد بن خالد من شدّة اعتداده بنفسه واستقلاله بقراراته .

ولّما حدث ما حدث بين الملك سعود رحمه الله والملك فيصل رحمه الله قال الملك فيصل للأمير سعد: بلغني أنك على"المردمة" تجمع الجموع عليّ . فقال الأمير سعد: أصلح الله الأمير، أنا على المردمة بإبلي وجماعتي وأقاربي وعبيدي، وليس عندنا شيء ممّا ذكرت، ولو أمر الملك سعود بحربك لكنت أنا أوّل من يرميك بالرّصاص! فغضب الملك فيصل، وقال: و لم ذاك؟ فقال: لأن في عنقي بيعة للملك سعود، و لم تسقط حتّى طرحها العلماء وألبسوك إيّاها . فزال الغضب عن وجه الملك فيصل وأعجب بكلامه وقال: هذا الولاء الذي نريد . توفي سنة: (١٣٨٥) بالطائف، رحمه الله تعالى.

(٦) الحسو: بئر ضيّقة، لاطئة بالأرض، ليس لها جدار خارجي، والعادة أنها تكون ملحقة بالمساجد أو البيوت .

(٧) قمزان: هو حي آل حجي بقرب السوق القديم .

(٨) قطان: واد يقبل من ناحية الجنوب الغربي شرقي جبل حضن، ويصب نحو الشمال الشرقي . وتكثر حوله البراث والبرقان والأودية الصغيرة والأشجار التي تزين رقعة الأرض، والسهول والحزون، ودونه قارة أم السباع والثويري وضعان ووادي "بطان" . قال الحطيئة:

عوابي بين الطلح يرجمن بالقنا خروج الظباء من حراج قطان

وقال آخر:

إذا بلغ المطي بنا بطـــانا وجزنا الثعلبيّة والشقـــوقا

(٩) قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، وحسّنه الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" فهو يغني عن الحديث الضعيف المشهور على الألسن: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله).

والتوّسم: هو التفرّس . وفي التتريل: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) أي: المتفرسين .

(١٠) المشلح: العباءة .

(١١) أي أتحمّل وأحتال .

(١٢) البابور: السفينة ذات المحرك . واللاتي لهن حنّة: السيارات .

(١٣) وكان هذا الشاعر صغيراً في ذلك الوقت، لكنّه غزا مع خالد غزوات الجنوب، يقول: كنت مع الصّبية نحرس الإبل ونطعمها في غياب الإخوان الكبار، الذين هجموا على قرية من القرى، فقلت لمن معي: ابق مكاني وسأذهب أستطلع أخبار القوم، فدخلت قصراً قد هرب منه أهله، فلمّا دخلته إذ شيخ كبير يستدفئ بنار قد أوقدها، ففزع لمّا رآني فقلت: سالم سالم - أي لن ترع - أين الدّراهم؟ فأشار إلى صندوق عنده، مقفل بالحديد، فأخذت الفاروع وضربت الصّندوق حتّى كسرته، فتهوّلتُ من كثرة الذّهب والسّلاسل والجنيهات فيه! فأخذت كيساً ووضعت فيه ما استطعت حمله، ثمّ عُدت لأصحابي الصّغار، فإذا البواردّية - أي الرّماة - قد أقبلوا، وإذا معهم منير صاحب الذّلول الّتي أعتني بها، فقال: هل حششت للذّلول ياولدي؟ فقلت: الصبيان حشّوا لإبلهم وأنا جئتك بالذهب . وأريته مامعي فأخذه وانطلق بي إلى القائد سلطان بن بجاد وأخبرته الخبر ونثرنا له الكيس، ثمّ بعث من أتى بالصندوق، ففرح بأمانتي وعدّ لي عشرين فرانسياً، وأعطاني مثل غنيمة المقاتلة، أما بقيّة الصغار فرضخ لهم رضخاً . وكان هذا الرجل أي هاضل بن ناجي الثوري؛ يحمد الله أن يديه لم تلتطخ بدم مسلم قط، حتى في معاركه، كان يتجنب القتل . وهذا الشعور كان يجري في دم غير قليل من الإخوان خاصة في معارك الجنوب، وكانوا يتحرّجون من القتل، وممّا تناقلوه على سبيل الأسى والتفجّع ما حدّثني به الشيخ عمر بن سليمان الدميجي رحمه الله عن أحدهم، وسمّاه، قال: كنت في إحدى المغازي للجنوب، فلمحت سواد رجل بطرف عيني فالتفتّ فإذا رجل مستوفز وقد رفع عنّي البندقيّة ولو شاء لقتلني فلم يكن بيني وبينه شيء، قال: فالتففت عليه من الخلف ثم قفزت عليه وطرحته وبركت عليه، ولم يعقني طرحه فقد كان شيخاً مسنّاً، ثم أخرجت الخلب (خنجر صغير) فرفعته فوق رقبته، فلمّا أيقن بالهلكة؛ أغمض عينيه وقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله . قال: فطعنته فمات . قلت: رحمه الله تعالى فقد قتله ورعه وتقاه، وكان ذلك القاتل كثيراً ما يبدي ندمه على ذلك الفعل، والله المستعان .

(14) وهي مركز تموين جيوش الشّريف سابقاً .

(١٥) خرّج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قَال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحسّاهُ في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً) والملك فيصل لم يكن ليفعل ذلك لكنه من باب الضغط على والده، ولبيان شدة امتعاضه من القرار .

(١٦) وتمام القصيدة:

سعد بانت لــه أفــــــعال في الـــــــسيد وأهل التهام

أولهـــــــا كون المظـــــايا مـــع ترويحـــــــات العشايا

والمـــــحصـــــب جا بلايا كم طـــــــــــريح ماقد قام

والآخـــــر من ورى بيـــش هي مبـــــــــتدانا بالجيش

والحـــجر وابو عريــــــش والزخـــــــمية جت هدام

واكوان .... في العيـــــد مـــنـــها الســيد جا شريد

عنـــد الجـــــــبل ذا فريد نــــــــزل مـــهدي للسلام

أبذكر لك أهـــــل الوديان وامـــــدح جـــموع السبعان

نعـــم والله يالاخـــــــــوان أهـــل اليمن واهل الشـــــام

وابو لعثة في قحــــــطــــــان وابن مشـــــــيط في شهران

والمـــــدحمي مع جـــرمان واولاد زايــــــــــــد قدام

واهل بيشة والبقــــــــــوم واهـــل المواتر عمــــــــوم

قـــبلـــــهم فهد مـــلزوم لهـــــم تثــــــنات السلام

نعـــم والله ياهل اللنـــــج تقـــول شـــــاربيـــن بنج

طشوهم طش الشطـــــرنج طــــــقـــوهم طــــقة ادهام

قـــــوم مقودهم فـــــراج ماهـــابوا ضــــرب الأمواج

شـــجاعتهم ماتـــحتـــــاج الحـــــــق فيــــــهم يالفصام

يالله ياوالي العـــــــــبـــاد ياللي تحــــــــكم في الميعاد

ارفــــــع مقام الاجـــــواد وارفــــــع مـــــقام الحكام

خمسة شهور في الغــــــور في دار بـــــــردها نـــــــور

أرض الوبـــــا والدبـــــور مـــــــــاها وبـــاء واسقـــام

صــــــبرنا صبر الرجـــــال بلغنا مشـــــــــــــكل الحال

والزهـــــادة في النــــــوال الله يبـــــــــــــــــيح الإمام

أحد ميّت واحــــــد حـــي والغـــنـــــــيـــمة راحت فيّ

للمـــــشايخ وابن لـــوي صـــــــــــدق هذا في الكلام

والـــمزهب مد بخيـــــس كـــــــــل أربعين في كيــــــس

ملـــــكنا ما هو فلـــــيس أبرقوها للإمـــــــــــــــــــام

ويدامه من ربع ريـــــــال يهدونه للـــــــــــــــــــرجال

معروف من بيت المــــــال هـــــــــــــذا مانراه انـــعام

الله أكبر ياإلاخـــــــــوان هذا نـــــــــكر في الزمــــــان

شـــحذتكم لابن سليمـــــــان رز ما علــــــــــــــــيه ايدام

أبو تركـــــــــــي لو دريت بالزهـــــادة ما مــــــــديت

جـــــودك راسي على بيـــت محـــــــــد مثلك في الإكرام

ترانا أهـــــــل التوحـــــــيد سـيـــــف لك ضربه سديد

مـــا نستحق الزهـــيــــــــد كــــــرام وابـــــناء كرام

يانـــديي على حــــــــــيل خـــفف لـــهم في الـــمشيل

لا تلهيهم في المقـــيـــــــــــل واســـــر في ليـــــل الظلام

مر ابن معمر مقيـــــــــــال فانه ملــــــــــــفى للرجال

قد جاله في نجران أفعــــــــال في تاريخ ابن غـــــــنـــــــام

عقـــــــب اربع ممســـــــاه عنـــــــد اهل وادي الميـــاه

وادي ما يحــــــــــمك ماه جعله يـــســـــــقيه الغمام

بدو من ربع هـــــــــــذال عـــــــندهم سلوة البـــال

في ســـــــرح كله اظــــلال يعدا لك بالكـــــــيف شمام

عقبهم ممســــــــــاك البلاد هي ادنا نبـــــت الاجـــــواد

رنية حط بها الشـــــــــداد غـــرس نبـــــــته في عـــدام

أهلها يقرون الضيـــــــــــف أهـــل بن واهــــــــل كيف

أهل دار لاجاها الضـــــيف يخـــــتــــــلط الغرس بجهام

أرض عذا فيهـــــا قـــــوز ما باعوا خضـــــــــــرة الموز

مشتاهم خشم طـــــرعوز والاحـــوضي في العــــــــدام

دار فيها قد نشـــيـــــــــت ودي فـــــــــيها قد مشيت

وآخر واول مانقـــــــــــول صــــــــــــلاة على الرسول

عد من لزم الحجـــــــــــول يطوف بالبـــيـــــــــــت الحرام

"عَتَبُ الأحبّة":

يعتب البعض من رفقاء الدّرب وقدماء الأصحاب وأصفياء الإخوان، خاصّة من سكّان الخرمة على خالد؛ أخذه لنخيل وإبل وبيوت بعض أهل البلد خاصّةً من بني ثور، وإعطاء هذه الأموال لغيرهم، مع كونهم قد عادوا لبيضة الدّين، وتديّنوا مع الإخوان، وهذه هي أكبر ما ينقم بها بعض الناس عليه إلى هذا الزمان. ويُجاب عن ذلك بأمرين:

الأوّل: أنّ هذا التّصرف لعلّه كان بأمر وقضاء القُضاة كالشّيخ ابن حسين وابن داود، وليس من رأي نفسه . ويكدّر على هذا الظن أن هذا التصرّف قد انتهجه بعد معركة حوقان، فهل كان ذلك برأي الشيخ ابن حسين ذلك الحين أم لا؟ .

والثّاني: أنّ هذه الأموال حينما صُودرت من أهلها، كان أهلها لحظة الحكم بمصادرتها في حكم المحاربين المرتدّين عن الإسلام _في نظر جمهور الإخوان_(*) حلالي الدّم والمال، لحربهم الموحّدين، ومحكوم عليهم بالكفر، فصودرت تلك الأموال وصارت فيئاً للمجاهدين، ومن ثَمَّ قُسِمَت حسب القسمة الشرعية، ولّما عاد أصحابها السّابقون، عادوا للإسلام من جديد بأموال مستأنفة معهم، أمّا ما مضى فقد قسم وانتهى، ولّما طلب منه بعض الأكابر ردها، تعلل بأن المقاسم قد استنفذتها _ ولو أنّه تركها لهم في البدء كان أولى _ والله أعلم، وفي الحديث المرفوع: (وما أخطأك لم يكن ليصيبك) (**)

ومسألةُ أموال المرتدّ مبسوطة في المطوّلات الفقهيّة، فهناك من يقول:

بأنّها فيء، وفريق آخر يقول: أنّها تقسم على ورثته، وفريق ثالث يقول: بحبسها حتّى يعود صاحبها أو يموت . والقاعدةُ المضطردةُ أنّ حكم الحاكم في مسائل الاجتهاد يحسم الخلاف، بمعنى أنّ الحاكم إذا أخذ بقول فقهيّ مُعتبر فلا يُفتأت عليه بخلاف بل يكون اختياره قاطعاً لدابر النّزاع، والله أعلم . (***)

قال بشار بن برد:

إذا كنت في كلّ الأمـــور معــــاتباً صــــديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أو صـــــل أخاك فإنّه مقــــــــــــارفُ ذنبٍ مرّة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مِرَاراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفوا مشاربه

(*) في رأي السّواد الأعظم من الإخوان، بناء على فتاوى علمائهم، لذا فقد كان الشيخ عبدالرحمن بن داود رحمه الله إذا أُتي إليه برجل فقال: برئت منه الذمة . فإن الأمير خالد يأمر بقتله مباشرة. وعلى كل حال، فنحن ننظر لهذه المسألة ونحن نعيش الأمن والسلم والرغد، وقد نرى أموراً وتخفى عنا أمور، أو خلفيّات، أو وقائع، أو أحداث، أمّا هم فكانوا يعانون ويلات الحروب، ويصطلون بنارها، ويكتوون بحرّها، وتدهمهم الأمور الكبار، وتتطاحن بين أيديهم وعن أيمانهم وشمائلهم الفتن العميّة، فصدروا عن ذلك بفتاوى حاسمة، وبمسؤولية تامّة، إذ هم قد بلغوا من العلم بالشرع والحال ما يؤهلهم للقيام بهذه المهمات الجسام . رحمهم الله تعالى . وقديماً قيل: إذا لم تقل الحق، فلا تقل الباطل .

(**) رواه أحمد .

(***) في رسالة للملك عبدالعزيز بتاريخ: (١٣٤٧) موجهة لفيحان بن صامل الشريف أمير رنية في وقت الشريف وأقرّه الملك عبدالعزيز على إمرته: (....ورد علينا السبعان هم ورجال خالد بسبب مشاقتهم _ أي خلافهم _ هم وخالد، وأحضرناهم عند المشائخ، ولا صارت لهم حجة شرعية، إنما هي علوم خبلة! وعلوم بدو! ثم بعد ذلك طلب السبعان أن نتوسط بينهم، ونمضي عليهم بما نبي، وقلنا لهم: ما فات راح، منكم ومن خالد، وعاهدونا إن دربهم درب خالد على حكم الشرع، والأمور الفايته مطروحة وميته....) (لسراة الليل: ١٧٣) .

(١٧) روى أبو داود وصححه مرفوعاً: (ومن قتل دون أهله فهو شهيد) ومعلوم فجور الترك بالجزيرة.

(١٨) أهل الخرمة يؤرخون بسنة الحمّى الأولى: (١٣٥٥) ثم سنة الحمّى الثانية: (١٣٥٦) والشيخ عبدالرحمن توفي في آخر: (١٣٥٤) وهو أول من مات من هذا الوباء، ولحقه بأيام: سليمان بن صالح الدميجي في حوقان، ثم سمرة في السلمية، ثم هب الوباء في الناس، فصار طاعوناً فلم يبق بيت في الخرمة إلا مات من أهله، بل وبعض البيوت سكرت أبوابها لموت جميع سكانها، وإذا أقبل المساء رأيت الكثير من الناس قد اتكؤا على جدران بيوتهم من الخارج، مخلفين أحباباً لهم قد ماتوا في الداخل ولا يستطيعون تجهيزهم، لأنهم على وشك اللحاق بهم من الحمّى! ولعلّ هذا الوباء قد جاء مع الحجاج بأمر الله تعالى، أو أنّه من الغيْل وهو الماء الراكد في وادي الخرمة فتكاثر عليه البعوض فسبب الكوليرا أو الملاريا، وبعضهم يسميها الحمّى الصفراء، والله أعلم .

وكان للأمير سعد بن خالد مواقف مشكورة في التعامل مع هذا المرض والموت العامّ، فكان يشرف على زيارة الأطباء للناس ويمشي معهم بنفسه، كذلك كان يمشي على بيوتهم ويأمر بغسل الموتى وحفر القبور التي شقت على الصحاح، لكثرة الموتان! والله المستعان، وفي البخاري في كتاب الجهاد: (باب: الشهادة سبع سوى القتل) وساق حديث أنس رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الطاعون شهادة لكلّ مسلم) .

(١٩) في الخرمة كان الناس لا يطلقون كلمة شيخ إلاّ على من كان قاضياً، أما الواعظ والمرشد والمعلم فيطلق عليهم مصطلح: مطوّع .

(٢٠) المسهر: هو البرج الحربي من طين أو حجر ونحوه .

(٢١) ويقال: إن الشيخ صالح الفريج لم يسكن عند الشيخ ابن داود مع من سكن عنده من طلبته، والله أعلم .

(٢٢) الرابعة ضحى بالتوقيت الغروبي تقارب العاشرة صباحاً بالتوقيت الزوالي .

(٢٣) قرابة العاشرة مساءً بالتوقيت الزوالي .

(٢٤) استطراداً: يقال إن الشيخ عبدالله الخليفي رحمه الله تعالى إمام الحرم المكي قد أمّ في أحد مساجد الخرمة نحواً من سنتين: (١٣٦٠-١٣٦١) .

(٢٥) رُئيت له منامات طيبة، منها أن أحد أصحابه كان نائماً في البر عند إبله، بعيداً عن الخرمة، وكان من الصالحين ولا نزكيه على الله، فرأى في منامه: أن السماء قد فتحت، ومناد ينادي الحلّاف أو يذكر اسمه، أو نحو هذا، قال: فقمت من فوري فنزلت البلد فإذا جنازة الشيخ سعد الحلّاف تغسّل، رحمه الله تعالى . وقد وافقت رؤياه وقت رؤيا أحد أصحابه في الخرمة بمن يبشر الحلاف بالجنة .

وقبل وفاته بقليل توضئ فأحسن الوضوء بمساعدة ابنته ثم صلى ركعتين فمدت عليه ابنته علاجه فقال: يابُنية إني راحل إلى ربي، وإني إن شاء الله قد أفلحت، فألحت عليه بالدواء فقال هاتي حبة واحدة مع مذقة لبن تطيباً لخاطرك، وبعدها اضطجع وتشهّد وفاضت نفسه، رحمه الله تعالى .

ومن حرصه على مدارسة العلم فقد كان بينه وبين الشيخ محمد الدميجي ساعة أو نحوها وقت الضحى، يتدارسان العلم، فإما ذهب الأول للهجرة، أو الثاني للسوق، رحمهما الله تعالى .

(٢٦) كتب ابنه الشيخ عبد الرحمن كلمات في سيرة والده نقتطف منها ما تيسّر مع بعض الزيادات، قال رحمه الله تعالى:

أما نشأة الوالد رحمه الله فقد نشأ في الخرمة. وكان مولده في عام: (١٣٣١)ونشأ الوالد في ظل والديه مع أخيه وأخواته في بيت عز وكرم، واستفاد الطفل من والده الصبر والعمل الجاد منذ الصغر، وكانت الحياة السياسية في عهد طفولته غير مستقرة حيث كانت بلدته الخرمة تابعة للأشراف بمكة، ثم تغيرت بعد تولي خالد بن بن منصور لؤي الأمارة عليها ومعاداته لشريف مكة ثم الحروب المعروفة .

وأما صفات الوالد الخَلْقِيَّة؛ فهو رجل مربوع القامة، جهوري الصوت، يحترمه من يراه لأول وهلة، وأما صفاته الخُلُقِيّة؛ فكان محباً للخير وأهله، مبغضاً للشر وأهله، لا يخاف في الله لومة لائم، شديد الإنكار على أهل المعاصي والمنكرات، يحب في الله، ويبغض في الله، لا يخشى أحداً إلا الله، ولا نزكيه على الله، وكان مشهورا بالصدع بالحق والإنكار على أهل المعاصي والفجور .

أما طلبه للعلم؛ فقد وفّق لطلبه منذ صغره؛ فقد رحل في صغره للرس لطلب العلم على شيوخه، ثم انتقل إلى عنيزة لطلب العلم على الشيخ عبدالرحمن بن سعدي يرحمه الله . ولكن والده لم يطق صبراً عنه، فأعاده للخرمة بعد شهرين أو ثلاثة من سفره، ثم طلب العلم بالخرمة حيث طلب العلم على ثلاثة من قضاة الخرمة وهم: الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن داود قاضي الخرمة في ذلك الوقت، ويعدّ شيخه الذي استفاد منه كثيراً حيث لازمه ملازمة تامة في الليل والنهار، ودرس عليه علوم الشريعة واللغة العربية .والثاني هو الشيخ إبراهيم بن سليمان آل راشد حيث استفاد منه الوالد كثيراً ودرس عليه علوم الشريعة واللغة العربية . والثالث هو الشيخ فيصل بن مبارك، حيث درس عليه علوم الشريعة . وغيرهم من المشايخ وطلبة العلم في وقته . ثم تولى إمامة مسجد حوقان، ثم إمامة مسجد الهجرة بخطاب من الملك سعود بن عبد العزيز يرحمه الله بأمر من والده الملك عبدالعزيز يرحمه الله حيث ولّاه إمامة المسجد المذكور وفتح مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلوم الشريعة وعلوم اللغة العربية حيث استفاد منها الكثير من طلاب العلم قبل فتح المدارس الحكومية، وأذكر منهم على سبيل المثال فيصل بن منصور بن لؤي، وابنه سليمان بن محمد الدميجي يرحمه الله، وكاتب هذه السطور وغيرهم كثير.

ومن أخباره رحمه الله: أنّه ركب معي ونحن قادمان من الرياض، فشرع في الفاتحة مع نزولنا من "ديراب" واستمر في القراءة عن ظهر قلب بلا انقطاع فلم نصل شعف _ وهو ضليع قبل الخرمة بنحو: (٣٠)كيلاً _ إلا وهو يدعو دعاء الختمة . وبي الخرمة والرياض قرابة: (٧٠٠)كيل .

ومن شجاعته في الحق: أنّه كان في مجلس يضمّ الأمير سعد بن خالد، وبضعة رجال، وكان بين سعد وأحدهم خصومة ثم إن سعداً غضب غضباً شديداً وسبّ الرجل مسبّة موجعة، ولاندري هل هي موجبه لحد في ظهره أو في مادون الحد، وكان في المجلس الوالد المطوع ثم انفض المجلس، وتفرق أهله فلحق الأمير سعد بالمطوع ودخل عليه مترله وقد خاف من حكم القاضي، وقال: احذر أن تشهد للرجل إذا طلب شهادتك، فإن

شهدت علي فسترى ما أصنع بك، وتوعده وهدده! . وكان سعد عفا الله عنه، مشهوراً بقوة بطشه وشدة سطوته . فقال المطوع بكل هدوء: يا سعد: أمّا خصمك فلن أذهب إليه وأخبره بشهادتي، فهو يعلم بشهودي ذلك المجلس، ولكن إن طلبها مني فو الله لأصقعك بها في رأسك (أي لأضربن بالشهادة رأسك) فأنت الظالم، والشهادة والله لا أكتمها ولو فيها قطع رأسي! وفعلاً جاء طالب الشهادة في اليوم التالي، فوجدها جاهزة فذهب معه للقاضي وأدلى بها . وفي المساء جاء الأمير سعد فدخل عليه وسبه سباً شديداً . فلم يجبه إلا بقوله: يا سعد لعلمك ترى ما انتظر من شهادتي مدح ولا ذم، لا منك ،ولا منه، ولا انتظر ذخرها إلا من الله وحده، وأما غيره فما علي منه، وبعد مدة من الزمن، جاء سعد فدخل عليه وقبل رأسه واعتذر وقال: بيّض الله وجهك يا ولد سليمان ما حسبت حساب الخلق . وللعلم فقد كان بينهما محبة شديدة متبادلة، ومصاهرة فقد كانت أخته هيا زوجة لسعد وأنجبت له نورة، رحمهم الله تعالى .

ورعه الدقيق: لم يكن يلبس الثياب الملونة في الشتاء، لخشيته أن يكون فيها حرير ولو من بعيد، وقد كان في الشتاء يلبس ثوبين أبيضين فوق بعضهما وقماشهما من الساحلي " البفـّ" وهو القطن المصري الصافي . وقصة ذلك: أن ابن بشيّر _ وكان من طلابه _ وكان يقرأ عليه يومياً بعد الفجر، فأراه طاقة قد جلبها من تلك الثياب الملونة وهي من قماش " الدوبلين " وكانت ناعمة، وكان الناس قبلها يلبسون ثيابا من قماش " التترو " الخشنة . فقال المطوع: أخشى أن تكون هذه النعومة هي نعومة الحرير، ولكن سأفحصها لك، وكانت بين يديهما نار القهوة، فقصّ المطوع قطعة صغيرة من القماش ثم أدلاها من النار بدون أن تمسها فذابت وانماعت، وقطّرت على القماش، فقال المطوع: عزّ الله إن قماشك بريئ من الحرير فالحرير يرمد ولا يذوب، ومع ذلك فلن يمس جلدي منه شيء . فأعطاه أم سليمان " زوجته" رحمها الله وقال: يا حصة قطّعيه لعيالك، وأما أنا فلا تفصلين لي منه شيء واتركيني على ساحليي الأبيض.

قال خالد بن حسين بن خالد حفظه الله: أتيت للمطوع الدميجي بقهوة وهو في المسجد وبجواره صاحبه محمد بن بعيجان، وحينما مددت له الفنجان ومددته له ردّه، وقال: لا تمد قهوتك لي! ثم مددته لخالي محمد بن بعيجان فقال: وأنا كذلك لا تمدها لي! قال فقلت: علامكم علي يا ابو سليمان؟ فقال: بلغنا أن في بيتك تلفزيون. قال: فركضت لبيتي فأخرجت التلفاز وضربت به الأرض، ولم أتركه حتى هشمته، وأتيت بكسره إليهما _دليل توبتي_ فقال المطوع ووجهه يتهلل: الحين طاب كيفك يا خالد، صب لنا من قهوتك.

ومن إنكاره للمنكر: عقد أحد المشايخ عقد زواج، وكان ولي المرأة الذي جرى العقد على يديه ليس هو أقرب ولي، بل كان دونه من هو أولى منه، فأرسل مباشرة لذلك الشيخ العاقد مخبراً له ببطلان العقد المذكور، لعدم جريانه على الصفة الشرعية المعتمدة، وطلب تصحيح العقد وهو ما كان .

ومن حرصه على نصح الناس: لما طلّق وظاهر أحد جيرانه من زوجته، فقال لها وهو غاضب: تراك طالق ثم طالق ثم علي مثل أمي! جاء له يستفتيه، فأحاله على الشيخ محمد بن رشيد رحمه الله في الطائف، فسافر إليه واستفتاه، فأفتاه بكفارة الظهار بعتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين

مسكينا . فقال: إن رزقي قائم على السفر وأنا جوال في الأرض " كداد " ولا أطيق صيام الشهرين متتابعين . فقال الشيخ: إذن فأطعم ستين مسكينا . فأطعم وعاد للخرمة وسمع المطوع برخصته فناداه ونهاه وقال: لايجزئك الإطعام فأنت تطيق الصيام فأنا عالم بحالك، ومدخلك ومخرجك . فرفض الرجل طاعته في تلك الفتوى وقال: أنت الذي أحلتني على الشيخ محمد وهو الذي أفتاني، فقال المطوع: يافلان: أخشى أن ترى غبّ ذلك في عيالك .

وكان رحمه الله ذا همة عالية وصبر وجلد، وكان قوياً وحازماً في تعامله مع طلابه ومحاسبتهم على التقصير سواءً في الحفظ أو المتابعة، وكان يضرب ضربا مبرحاً عند الخطأ أو التقصير. وكان يرحمه الله يحبه من عرفه وكانوا كثيري الثناء عليه بعد مماته فلا يسمع له ذكر إلا قرن بالدعاء له بالمغفرة والرحمة، وكان زاهداً في الدنيا كريماً، وكان بيته رحمه الله مفتوحاً لمحبيه وزائريه والمحتاجين، وكان مجلسه بقصره بالهجرة مأوىً للقادمين من خارج الديرة لأداء صلاة الجمعة، حيث كانوا يتناولون القهوة قبل الصلاة وبعد الصلاة يعودون للقهوة والغداء .

وكان يرحمه الله صبوراً، وظهر أثر ذلك بعد وفاة والده وكثرة الديون عليه، وحيث عمل بنفسه بالفلاحة رغم مشاقها، وكان يقوم بالتلقيح والتعديل والصرام والوزن مع أخيه عمر وأبنائه حتى يسر الله له إبرار ذمة والده من الدين خصوصاً بعد عمله إماماً للمسجد فراتبه غالبا يذهب للدائنين مع قيمة التمور والحبوب من النخيل والمزارع .

وكان يرحمه الله قانتاً كثير العبادة طويل الصلاة والتهجد وقراءة القرآن وصيام الأيام الفاضلة، بل قد سرد صيام ستة أشهر متتابعة ولولا أن عزمت والدته عليه بالفطر لزاد! وكان يختم القرآن في رمضان يومياً، أمّا في شبابه فكان يختم مرتين؛ مرّة في النهار ومرّة في الليل، وقد كان حافظاً للقرآن الكريم ولا يكاد يخرم حرفاً من حفظه، وكان يقرأ بصوت مرتفع ندي حيث أعطي حسناً في الصوت أثناء القراءة .

وكان رحمه الله كثير الخلوة بنفسه لعبادة ربه، وكان يختم القرآن كل ثلاث ليالي في غير رمضان .

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصـــالح الأعمال

وكان كثير القراءة في الكتب الأخرى وله تعليقات على كثير منها، وكتب منتخبات من تاريخ ابن كثير رحمه الله، وكان لا يمل من القراءة سواءً قراءة القرآن أو كتب التفسير والحديث والعقيدة واللغة العربية وغيرها .

وكان فرضيا متقناً لعلم الفرائض والنحو والحساب مع غيرها من العلوم الشرعية والعربية .

وكان يرحمه الله واصلاً لرحمه يزور والدته وأخيه وأخواته وأصدقائه ومحبيه .

توفي عليه رحمة الله في الخامس عشر من شهر ذي القعدة عام: (١٤١٥) الساعة التاسعة مساءاً. وصلى عليه جمع غفير من أهالي الخرمة وغيرها ودفن بجوار والديه وأخواته في مقبرة حوقان بالخرمة، ورؤيت له العديد من المنامات المبشرة، نحسبه والله حسيبه، ورحمه الله وغفر له وللمسلمين .

وقد كنت أرجو أن أُمَلاّكَ حِقْبَةً فحالَ قضاء الله دون قضائيا

ألاَ لِيَمُتْ من شاء بعدك إنّما عليك من الأقدار كان حذاريا

وللعظه فكاتب سيرة هذا العلم قد لحقه ورحل عن الدنيا وهو ابنه الشيخ عبدالرحمن رحمهما الرحمن.

قد كنت تكتب في التاريخ متئداً وقد رأيتك اليوم في التاريخ مكتوباً

(٢٧) لتلميذه الشيخ ندا العضياني، كتيب حافل في سيرة شيخه الشيخ صالح حفظه الله تعالى .

وسأنقل ما كتبه أحد أبنائه رحمه الله:

(صفحات مشرقة من حياة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدميجي)

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّعُ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

فهذه الوريقات ليست سرداً لسيرة ولا تأريخاً لزمان ، بقدر ما هي إضاءات وإشراقات لرجل غاب عن عيوننا ولم تغيبه قلوبنا , وغرب جسده عن أبصارنا لكن ذكرياته ووصاياه قائمة مقامه ، فلله دره من جبل أشم , ومعراج نور أتم ، هو الأب والمربي والمعلم والداعية والمكافح والمحب

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولي فؤاد شيّق

صنع جيلاً وربّى أمّة .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجساد

له جاذبية غريبة ومغناطيس عجيب لأفئدة الناس ، كأنه لا أعداء له ، فالمزارع والعامل والخادم والأعرابي والعالم والتاجر والذكر والأنثى ممن لهم أدنى خلطة به ، يذكرون ذلك، ولعل هذا من قبول الله تعالى له ولا نزكيه على الله تعالى ، وفي الحديث (إذا أحب الله عبداً نادى : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل وينادي جبريل في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه , فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض)

كفل الثناء له برد حياته لما انطوى فكأنه منشور

تلك الليلة ليلة السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة عام ١٤٢٨هـ رحلت روح الحبيب وخلفتّنا في دار كلنا فيها غريب ، لولا اليقين بموعود الله تعالى ورحمته وتثبيته لرحلت أرواحنا تاركة دنياها الأليمة، ولكنا نرضى ونسلم ونحمد الله على كل حال، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الحديث الذي رواه الحسين بن علي رضي الله عنهما عن أبيه عن جده صلى الله عليه وسلم : (من أصابته مصيبة وإن تقادم عهدها فقال إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطاه على المصيبة الأولى) أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

وقال أبو الطيب:

من لم يبت والحب ملء فؤاده لم يدرك كيف تفتت الأكباد

هذه حروف نبضها الفؤاد ، ودفقها الشجن , وتأوهها الصدر ، ليست مدوّنة جامعة ، إنما هي محطات في حياة ذلك السخي الزاهد , والتقي العابد رحمه الله تعالى رحمة السابقين وأعلى نزله في عليين ووالديه وأهله

ومن له حق عليه ، آمين.

صدّرتها بكان , تسهيلاً للقارئ حتى لا يخرج من حديقة إلا وهو ببستان ، ولا من روضة إلا لربيع أفيح.

كان رحمه الله عابداً وله عبادات سرّ بينه وبين مولاه من صدقات خفية وركعات سريّة وغير ذلك من قرباتة.

كان مجاب الدعوة في كثير منها ، وكان الكثير يطلبون منه الدعاء لهم ويخافون دعاءه عليهم , دعا على أربعة نفر آذوه فمات ثلاثة منهم في زمن متقارب أما الرابع فأدركه وتحلله فأمهله الله تعالى.

دخل صديقه المقرب إبراهيم العبيسي عملية خطيرة فقال قبل أن يخدر بالبنج : أوصوا الشيخ عبد الرحمن أن يدعو لي ، وفعلاً كان في العشر الأخيرة من رمضان فوالله لقد رأيته مصلياً ورافعاً يديه الوقت الطويل يدعو ويلح بالشفاء لصديقه وبحمدلله أنجاه الله وشفاه.

دعت أمه فقالت : اللهم لا تذيقني حر عبد الرحمن فقال آمين وأنا بعد ، فاستجاب الله دعاءهما فرحلت ولحقها مباشرة ، قبله بجمعة رحمها الله تعالى ، فقدمها بين يديه واحتسبها وقال : تمنّيت لو صليت عليها، والحمد لله على كل حال فلم يلبث بعدها إلا أسبوعاً رحمه الله.

كان رحمه الله باراً بوالديه ، و لم يطيّب نفسه بالسكنى في الخرمة إلا سكناهما فيها فبقي حتى توفيا رحمهم الله .

قد كنت أشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

قبل وفاته بأسبوع في يوم جمعه ولما صعد الخطباء المنابر كان على السرير الأبيض لا يستطيع حراكاً ، وقد ثقلت حركته، لكن قلبه كان حاضراً، فرفع لربه يدين أنحلهما المرض وأجهدهما الضنى، فرفع لمولاه كف الضراعة وحمد الله تعالى بمحامد عظيمة وأكثر من الصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : اللهم قد اشتقت للقائك واخذ يكررها حتى خفض يديه مصلياً حامداً ذاكراً ، ثم صلى الظهر والعصر ثم غفى ، فعلمت أنه راحل.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مدارج السالكين : إن من أعظم منازل السالكين هي منزلة الشوق إلى لقاء الله تعالى ومنشؤها محبة الله تعالى وحسن الظن به وخبيئة من أعمال صالحة .

كان رحمه الله صادق النصح للأمة فإن علم بأخبار سيئة للمسلمين ظهر ذلك عليه بل أثر على صحته ونومه ولطالما قنت قنوت النوازل لهم .

كان معظماً للتوحيد والسنة ولا أنسى بكاءه في خطبة في التحذير من وصية المزعوم خادم الحجرة النبوية.

كان رحمه الله حريصاً على الدعوة إلى الله تعالى بكل سبيل يطيقه ، بل لقد كان من أركان الصحوة المباركة في الخرمة حيث كان مديراً للمكتب التعاوني فيها منذ تأسيسه وحتى إنشاء إدارة الأوقاف ، كما كان في المدرسة يحرص على جلب الدعاة والأخيار لنصح الطلاب وإرشادهم.

تولى رحمه الله إدارة المدرسة قرابة ثلاثين عاماً تخرج على يديه الألوف من الرجال الذين يذكرونه بكل خير ، وقديماً قيل : ما تركت الآباء للأبناء أعظم من أيدي بر وإحسان في أعناق الكرام.

كان رحمه الله جواداً سخياً ، يضرب المثل بسخائه وريال ليس له كما يقال ، وإن طلب منه شيء ليس عنده

اقترضه وأمنه بالغاً ما بلغ.
ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم
سأله أحدهم سيارته ليذهب عليها مشواراً فوهبها له.
طلبت منه إحدى العزيزات على قلبه مبلغاً وقدره خمسين ألف ريال و لم يكن عنده يومها إلا الديون التي يئن ظهره منها بعد بنائه منزله الجديد بحوقان لكنه بكل سخاء قال لابنه: يا فلان اذهب لفلان وسلمني عليه واطلب منه خمسين ألفاً ، وفعلاً أرسلها لها مباشرة وبعد مدة أرسل لها بأنها في حل من ردها وانه يعتبرها هدية لها.
ألا بلّغ الله الحمى من يريده وبلغ أطراف الحمى من يريدها
أنفق الكثير من ماله في إصلاح ذات البين ، له معاريف وأيد كثيرة في أعناق الكرام بل واللئام ، فهو لا ينتظر منهم جزاءً ولا شكوراً ، بل كما قيل : يعمل المعروف ويرميه في البحر ، والموعد الله.
قال لي أحد كبار السن في الحج : والدك عبد الرحمن أشبه الناس بجده عبد الرحمن الرشيد لولا حدّة في طبعه ، كان يشبهه في شكله وطيبته وحب الناس له حتى حدته كان يغلبها بسرعة الفيئة رحمه الله تعالى.
من اهتمامه بالدعوة إلى الله ، لما كان الأقارب مسافرين للشمال عند حفر الباطن و لم يمضِ على نزولهم إلا يسير، فأصر رحمه الله على قطع سفره والعودة إلى الخرمة ليستقبل أحد المشايخ الذين دعاهم لإلقاء محاضرة في أحد المساجد , بل كان هو ممن يلقون المحاضرات العامة في البلد . وكان ابن باز رحمه الله تعالى يشكر له جهوده في الدعوة إلى الله تعالى ولما ذهب أحدهم لابن باز يريد النيل منه نهره الشيخ وقال: أنا أعرف عبد الرحمن الدميجي الداعية إلى الله لا تقل فيه إلا خيراً.
من مشايخه القدامى ، الشيخ مناع القطان والشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى وكان يقربه ويجعل القراءة عنده وكان من القلة الذين حصلوا على الامتياز في الفرائض عند الشيخ صالح في تلك السنة.
كان المشايخ قد وضعوا العين عليه لما كان في كلية الشريعة لنبوغه ونزاهته فأرادوا ترشيحه للقضاء فأبى فرفعوه إلى الإمام الشيخ عبدالله بن حميد رحمه الله تعالى فأصر عليه فأبى واستعان بخاله عبد الله الرشيد رحمه الله حتى خلصه من القضاء.
كان يختم القرآن في رمضان في أقل من ثلاث وكان صوته شجياً جميلاً لذيذاً تكاد سواري الجامع أن تتمايل مع نغماته إن قرأ أو أذن وبخاصة إن قرأ بحزن ، وفي الحديث (إن من أحسن الناس قراءة من إذا سمعته ظننت أنه يخشى الله) . أو كما ورد.
يقول أحد كبار السن : والله إنا لنصلي خلف غيره الصلاة القصيرة فتثقل علينا فإذا صلينا خلفه أطال الصلاة فلا نجد لها ثقلاً.
كان يعتكف كل رمضان ويختلي خلوة كاملة في العشرين الأول حتى يدركه أصحابه في العشر الأخيرة، وقد بحث هذه المسالة حتى وجد كلاماً للسلف بمشروعية ذلك منهم ابن حجر ومن المعاصرين ابن باز.

أكرمه الله تعالى في إحدى ليالي العشر برؤية ليلة القدر فقد كان متوضئاً في السحر وذاهب لداخل المسجد ليوقض رفاقه فرأى في السماء شعاعاً أزرق أبيض كضوء اللحام ولا يشبه أضواء الدنيا واستمر برهة من الوقت ثم غاب.

كان يختم بالمصلين في رمضان ختمتين الأولى ليلية سبع وعشرين والثانية ليلة تسع وعشرين.

في إحدى السنين دخلت ليلة الثلاثين و لم يختم الثانية وفي أثناء العشاء في المسجد بعد التراويح قال والده هذه السنة لم تختم الثانية يا عبد الرحمن ، فقال :أبشروا ، فبكر بالتهجد وقرأ ستة أجزاء أو نحوها في تلك الليلة وختم بها ، وبعد الصلاة إذ حسين بن خالد رحمه الله يعاتبه على هذا التطويل فاقترب الصديق الوفي لوالده محمد بن بعيجان رحمه الله فشكره ودعا له أما والده فكان يبتسم وقد تحققت أمنيته بالختمة رحمهم الله تعالى.

وكان يصلي التراويح بأهل حوقان لما كان والده يصلي بالهجرة فيذهب بالدراجة من الهجرة إلى حوقان كل ليلة وقد وضع كتاب الوعظ على الكرسي الخلفي.

صلى بجامع الهجرة وخطب به نحواً من أربعين سنة . بل لقد خطب خطبتين في يوم واحد الأولى بالهجرة والثانية بجامع العزيزية حيث لم يكن له إمام في ذلك الأسبوع.

كان لدعائه هيبة ويحس من يسمعه بصدقه وكان يكثر من المحامد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

كان لا يرضى بالظلم على أحد من المسلمين مهما كان ومن أي شخص كان بل ربما غامر بصداقة عقود من أجل إنكار منكر أو إزالة مظلمة فقد كان قوياً بالحق لا تأخذه فيه لومة لائم ولا ملامة عاذل.

كان جاداً في أموره ويأخذ نفسه الحزم ولا يدعمجالاً للفرص كما يقال ، بل كان أحوذياً يعد للأمور أقرانها.

كانت له هيبة من بعيد وسهولة من قريب، كان طيب المعشر سهل الخلق دمثاً يعرف ذلك من عاشره.

يُغضِي حياءً ويُغضَى من مهابته فلا يُكلَّمُ إلا حين يبتسم

انتدب لدورة في مكة المكرمة لمدة ستة أشهر ومع ذلك لم يغب يوماً واحداً عن درس و لم يغب جمعة عن منبره . الجدية بحذافيرها والحزم مع النفس وأخذها لمعالي الأمور ، فكان نعم الخليفة لوالده رحمهما الله وكان والده يقول: يافلان؛ إن جيت مثل أبوك ترى ما عليك خلاف.

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يطلب الحسناء لم يُغلها المهر

كان قلبه أبيض من اللبن وقد حلل وسامح كل من اعتدى عليه بمظلمة من أي شخصكان وقال : اللهم كلهم في حل . وهذا يذكرنا بفعل الإمام أحمد رحمه الله لما عفا عن كل من آذاه وكان يقول : ما ينفعك أن يعذبه الله بسببك ، بل يذكرنا بحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في الرجل المبشر بالجنة وكان أرجى عمل له انه كان لا يبيت ليلة وفي قلبه شيء على مسلم.

كان يذم نفسه ولا يراها شيئاً هاضماً لذاته منكراً لفضله ، يذكرنا حاله بحديث عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فقالت : أما السابق بالخيرات فهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تابعوه

والمقتصد هو من سار على نهجهم والظالم لنفسه مثلي ومثلك !!. وهذا من هضمها لنفسها وإلا فهي من أعظم السابقين بالخيرات.

كان صابراً على مرارة التعليم ثلاثين سنة، وكان جاداً حازماً لا يقبل أنصاف الحلول،

وكان قلمه ولسانه وجنانه جريئاً يهابه ولي أمر الطالب قبل ابنه ,قال عنه سعد بن عبد الواحد مدير تعليم الطائف السابق : إنه أحد أفضل ثلاثة مدراء مدارس على مستوى منطقة الطائف.

كان على شدة حزمه وهيبته عطوفاً على من يستحق العطف من الطلبة بل والمدرسين وجميع العاملين تحت إمرته ، ولما استدعى ولي أمر أحد الطلبة المشاغبين ليحل مشكلتة دخل الأب غاضباً ولعن ولده ووالديه ! أي لعن نفسه! فهدّأ الوالد رحمه الله من غضب هذا الأب الطائش وصرفه ثم قرّب الطالب وقال : يا ولدي تراي أبوك في المدرسة وأبوك هذا لن ندعوه مرة أخرى رحمة به وبك.

ومن أحداث التعليم أنه كان يوماَ في مكتبه في الإدارة فدخل عليه رجل كّثّ اللحية فقبل رأسه وقال : ألم تعرفني يا شيخ عبد الرحمن ؟ فقال : لا . قال: فلان الفلاني من طلابك سنة كذا جئت أستسمحك في كسري للزجاجة الخلفية لسيارتك الكابرس البيضاء في إحدى السنين ، فضحك رحمه الله وقال : يا ولدي ما حملت عليك شيئا من تلك الساعة لأني أعرف جهل الطلاب وضعف أحلامهم .

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

يقول أحد زملائه واسمه راتب مدرس الفيزياء : كنا نشرف في الفسحة على الطلاب وكنا نعاني من إدخالهم الفصول بعد نهاية الفسحة لتثاقلهم عن المسير وتضييعهم الوقت فشكونا ذلك له فقال : إذا دق الجرس فادخلوا أنتم واتركوهم لي . فلما دق الجرس قام على باب الفناء وبيده العصا فكأن الطلاب إصابتهم سكته وكأن على رؤوسهم الطير من حين خروجه فطأطؤا رؤوسهم وقاموا مباشرة لفصولهم وهو لم ينبت ببنت شفة لكنها الهيبة التي جلله الله إياها.

إذا بدا حجبت عينيك هيبته وليس يحجبه ستر إذا احتجبا

له هيبة عظيمة في المدرسة فيكفي أن يقال الدميجي فتنزل السكينة على أعناق الطغاة الجفاة.

كان شأنه عجيب مع الناس فعلى قدر ما كان يهرب من خلطتهم وسلامهم ومن مقابلتهم والاستئناس بهم كانوا يلاحقونه ويشيعونه بالدعوات والمحبة ، وهذه عجيبة من عجائبه رحمه الله تعالى.

كان يكره الغيبة وينهر من يغتاب عنده أحداً ويقول : فلننشغل بعيوب أنفسنا. في صغره درس في الكتاتيب في مسجد الهجرة على راشد بن عوض في البداية حتى يتعلم الهجاء وقراءة القرآن ثم انتقل للدراسة على الوالد محمد في نفس المسجد ثم انتقل للمدرسة السعودية وقبل في السنة الثانية وأكمل حتى السنة الرابعة ثم ذهب للرياض وسجل في التمهيدي.

ونشأ عند خاله القريب لقلبه عبد الله الرشيد _نائب رئيس تعليم البنات سابقاً_ رحمه الله تعالى وخاله يعتبر والده الثاني حيث رباه واعتنى به أكثر من عنايته بأولاده وبادلَهُ الوالد هذه المحبة والمودة حتى رحلا رحمهما الله تعالى.

ومن أخباره مع خاله المفضال انه أثناء دراسته في شبابه أراد أن يتوظف ، فقدم أوراقه وتسهلت معاملته و لم يتبق إلا توقيع المسؤول وهو خاله عبد الله ! . قال : فدخلت عليه في مكتبه وأنا كلي فرح وشوق للتوظيف والمرجلة ولما أخذ خالي الورقة وقلّبها نظر إلي بغضب ثم مزقها وقال دحيم تبي الوظيفة ؟! ما عندنا وظايف !! كان تبي تطلب العلم وإلا ارجع لبوك !. فتأثر تأثرا بالغا وبلغ الأسى منه مبلغه وعزم على الرحيل للخرمة وما كاد يصل البيت إلا وخاله قد أدركه وقد نزع عن وجهه قناع الحزم وأظهر وجهه الحقيقي الذي يقطر أبّوةً وحناناً وحباً ورقةً ، وقال : يا ولدي ، أبوك خلاّك عندنا وداعة ، وأنت من عيالي ولا أبغاك تنشغل عن الدراسة ، قال : فما استتم كلامه إلا وقد وانطفأت جمرة غضبي كأن لم تكن .

وكان يقوم بخدمة خاله والقيام بشؤون أهله وفي إحدى المرات وبينما هو راجع من أحد المهمات لخاله اصطدم بشجرة ضخمة وستر الله عليه والعجيب أن والده المطوع رحمه الله تعالى رآه في المنام وهو يصدم فلما عاد للخرمة وسلم عليه قال له مباشرة : أنت صادم ! . وليست هذه بغريبة على الوالد المطوع رحمه الله فلقد رأى أخاه عمر يسقط في البئر رؤيا منام في الوقت الذي سقط فيه أخوه في الحفرة ! وذهب مباشرة لحوقان ليطمئن عليه رحمة الله عليهما ، كذلك فقد قال لي ذات مرة وهو يذكر رؤياه لانقلاب الخال عبد الله بن عمر بسيارته ومعه أولاده ولله كأني معهم اسمع بكاء الأطفال والنساء!

نعود للوالد عبد الرحمن رحمه المنان فقد أعطاه الله تعالى نصيبه من الرؤيا والمنامات فكان كثيرا ما يرى أقاربه وأحبابه الأموات ، وأعجب رؤيا في حد علمي أنه رأى قصره في الجنة وقصر والده وقصر أحد الصالحين ، ولا يزال حياً وقت كتابة هذه السطور ، فكان كثيراً ما يرى والده أو خاله أو خالته أو أخاه سليمان فقد رآه مضطجعا على بساط اخضر معشب وأراد بلوغه والجلوس معه فقال : يا عبد الرحمن ما تشوف النهر بيننا . أي لا تستطيع بلوغي الآن لأنك حي.

ولما مات خاله عبد الله كان حزينا عليه جدا وذلك للديون التي كانت في ذمته ولما سددت القروض مر فترة طويلة و لم ير خاله فيها في المنام حتى كان يوم من رمضان دخلت عليه وإذا هو فرح مستبشر مسرور فقال : أبشرك يا ولدي شفت خالي في أحسن صورة ، شفت عليه ملابس بيض وبشت ابيض وسلمت عليه وضمني بقوة وقال : الحمد لله تو ما ارتحت.

اشرف على بناء جامع لأبيه بعد وفاته وأنفق فيه بسخاء بمعونة إخوته وأبناء عمومته وخطب فيه أول خطبه جمعة وسعد بها جداً لأنه رأى والده في المنام تلك الليلة وهو جالس في روضة المسجد ، وقال لعلها دليل القبول إن شاء الله تعالى .وفي الحديث (ذهبت النبوة و لم يبق منها إلا المبشرات ، الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له) وفسر بعضهم قوله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) بالرؤيا الصالحة.

كان رحمه الله تعالى زاهداً في الدنيا حيث كانت الدنيا في يده وليست في قلبه وكان لا يرد سائلاً ، قيل للأمام احمد : أيكون الرجل زاهدا وعنده مئة ألف درهم ؟ قال نعم إذا كانت في يده لا في قلبه.

كان كريماً جداً مضيافاً خاصة عندما كان في بيته في الحزم قبل أن يعتزل الناس كثيرا في آخر عمره ، باختصار هو إناء مُلئ كرماً , قد ملأ السخاء جلده ففاض جوداً وكرماً.

تراه إذا ما جئته متهـــللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فاليتق الله سائله

هو البحر من أي النوحي أتيته فلُجّتُه المعروف والجود ساحله

كان يؤثر على نفسه بكل ما يملك قد برّأه الله من الشح ولا نزكيه على الله . كان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف على الكعبة ولا يزيد على قوله : اللهم قني شح نفسي . فقيل له في ذلك فقال : ألم تسمع قول الله تعالى (ومن يوق شح نفسه فؤلئك هم المفلحون)

كان يحب الترتيب والتنظيم ويكره العشوائية ، وكانت جُلٌ أعمال المدرسة الإدارية لا يكلف بها أحداً بل يكتبها بنفسه.

كان عزيز النفس جداً ويأبى أن يطلب من أحدا شيئا ولو من أبنائه ، ويلحقه الحرج الشديد والغم إن اضطر لذلك.

كان (جمعية بر مصغرة) لما يقع على يديه من أموال المحسنين الذين يثقون به ، وللفقراء عنده جداول وأسماء مرتبه ومخصصات فقدوها بفقده رحمه الله.

كان محباً لأخيه سليمان محبة طاغية عليه ولا يمل من ذكره وأخباره والدعاء له.

كان شديد الحزم مع نفسه ومع وقته ومع أبنائه وبناته ولا يدع مجالا للصدف بل يأخذ حيطته ويعد للأمور أقرانها خاصة في أيام نشاطه قبل أن تهده الأمراض

تيقّـــن أن الله أكرم جيرة فأزمع عن دار الفناء رحيلاً

فإن أقفرت منه العيون فإنّه تعوّض عنها بالقلوب بديلاً

و لم أر أُنساً بعده صار وحشةً وبرداً على الأكباد صار غليلاً

ومَن كُنَّ أيامُ السرور قصيرةً به كان ليل الحزن فيـــه طويلاً

نظر إليّ بعينين حزينتين في أيامه الأخيرة وقال : يا ولدي لا يضيع حفظك للقرآن تراي من مدة ما أقدر أراجع القرآن من مرضي . اللهم أجعلها آخر عنائه وعوضه عنه رضاك عنه يا حي يا قيوم.

طالت معاناته مع أمراض عديدة من السكر والفيروس الكبدي وحمّى لا تكاد تفارقه وآخرها سرطان الغدد اللمفاوية نسأل الله بمنة ورحمته أن يجعلها شهادة له ، فقد كان يطلبها كثيراً وفي الحديث : (من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) وفي الحديث الآخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المبطون شهيد)

كان معظماً لـــ :

١- التوحيد ونشره وتعليمه.

٢- السنة (ويحرص على إظهارها).

٣- الصدقة (ويحرص على إخفائها).

٤- الإصلاح بين الناس وبخاصة إذا كانت بينهم قرابة.

٥- الأضحية والمغالاة في سمنها وثمنها.

٦- الدعوة إلي الله تعالى.

٧- الدعاء في كل وقت.

٨- الاعتكاف . وفي أُخريات عمره كان يعتكف رمضان كاملاً.

٩- تلاوة القرآن الكريم بصوته الشهي الحزين.

١٠- صلة الرحم حتى لو كانوا أصغر منه بعقود.

١١- أما الصلاة فلم يكن محتاجاً لمنبه ينبهه لها فقد كان القلب بها معلّقاً.

ماتت لفقد الظّاعنين ديارهم فكأنهم كانوا لها أرواحاً

ولقد عهِدتُ بها فهل أُرَيَنَّهُ مغدىً لمنتجع الصِبَى ومراحاً

كان رحيماً عطوفاً خاصة على الأطفال والنساء والعمال والخدم.

كانت العين سريعة إليه فكان كثيراً ما تصيبه العين من الناس ، وقد أخذت له الأغسال من بعضهم فبرأ منها ، وبعضها في علم الله تعالى.

كان عفيف البطن واليد والعين ، ويبتعد عن كل ما فيه شبهة.

كان وفياً لأصدقائه وكان أقربهم لقلبه سعد العبنق الذي ترك الخرمة وهجرها بعد وفاة خليله وقال : معاد لي فيها مقعاد عقب عبدالرحمن !

كان شديد المحبة والمودة والوفاء لزوجته أم عبدالله حفظها الله تعالى تعلّقها منذ الصغر.

تعلّقتُ ليلى وهي ذات ذؤابة و لم يَبْدُ للأتراب من ثديِها حَجْمُ

صغيرين نرعى البهم يا ليت أنّنَا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهمُ

لم يَرُقْنَهُ ترفات الرياض ولا تمدنهن ولا تنعمهن ولا حسنهن إذ أن القلب قد تربعت فيه بنت عمر (ماالحب إلا للحبيب الأول) ومحبوبته طفلة صغيرة فخطبها فقال أهلها : إنها صغيرة . فأراد والده أن يبحث له عن غيرها ، فأنهى القضية بأن قال بكل شوق وحب : (أَبنتظرها لين تكبر ثم بتزوجها) . وفعلاً تزوجها بمهر قدره ريالين في اليد وقلب لا تسعه الدنيا مَليءٌ بالحب والصفاء والود . وفعلاً عاشا بالمودة وحسن العشرة قرابة خمس وأربعين من السنين وولدت له ثلاثة عشر بطناً قد مات منهم أحمد الأول توفي وهو في مهده جعله الله شافعاً مجاباً.

وكان لا يمل من ذكرها والثناء عليها ولا يأنف من ذكر مكانتها عنده والثناء عليها وبيان حبه لها عند أصحابه _مع أن البيئة ريفية_ بل إذا رضي عن أحد أولاده ناداه : تعال يا ولد هيا. ولم أر في حياتي قصة حياة سطرها الحب والوفاء كالتي رأيته فيهما ، وههنا عجيبة من العجائب وموقف يذيب الصم الصلاب كادت الوالدة هيا تفارق الحياة بسبب هذا الموقف الرهيب ، ففي اليوم الذي توفي فيه وهو يوم جمعة كان ابنه احمد _ رعاه الله_ عنده مرافقاً من الصباح وكان الوالد رحمه الله في شبه غيبوبة لايحس بأحد ولا يستجيب لأي نداء مع ذلك فكان كُلّما مرت دقائق نادى هيا ..... هيا .... هيا ....هيا كأنما راعه قرب الفراق.

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وكلما مَرِّ أحَدٌ ظنه هيا فهتف باسمها بصوت ضعيف حزين ، حتى أقبل المغرب فزارته حبيبته هيا. وقد كنت واقفاً عند رأسه وهو في شبه غيبوبة أي لا يحس بمن حوله وعيناه مصفرتان من اليرقان شاخصتان إلى السقف ليس فيهما بريق حياة ، بوجه كليل قد نحل من طعن الأمراض والآلام ، فوقفت الوالدة عند رأسه فقلت له : أبوي هذي أمي هيا اللي تناديها من الصبح وكان قبلها لا يستجيب لأي نداء ، ولما قلت هذا الكلام مد يده إليها بصعوبة وثقل شديد فانحنت له لتقبل رأسه فجعل ذراعه خلف رقبتها وضمها لصدره وهو في شبه غيبوبة فذابت الوالدة من البكاء وتهشمت كبدها وانماع فؤادها وكادت روحها أن تخرج لولا لطف الله تعالى ، ثم مالت يده جانباً ولم يرفعها حتى قضى وأسلم الروح لبارئها . فلا اله إلا الله ما أعظمه من وداع !!

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

رُوِي أن قيس بن الملوّح _ مجنون ليلى _ لمّا اختُبِل عقله،كان يخرج في فيافي الشام ، فيقول : أين أرض بني عامر ؟

فقيل له : أين أنت من أرض بني عامر ؟ عليك بنجم كذا فَسِر عليه.

فانصرف وسار حتى أتى أرض بني عامر فوقف على جبل يقال له التَوْبَاذ ثم أنشد:

وأجـــهشت للتّوباذ لمّا عـــرفتُه وكـــبِّر للرحمن حـــين رآني

فأذريت دمع العـــــين لما رأيته ونادى بأعلى صوته فدعاني

فقـــلت له أين الذين عهدتُهُم بجنبك في أمن وطيب مكان

فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى مع الحدثان

(٢٨) ذكر عنه الشّيخ عبد الرحمن الدّميجي رحمه الله تعالى: (ت:١٤٢٨) قصّة ذات عبر، فقال: كان الشّيخ يحدِّثُ النّاس تحت قصر الحُكُم، ووافق ذلك اليوم وجود أحد القناصل النصارى عند الإمام، وَعَلِمَ الشّيخ بذلك فأخذ يفسّر قول الله تعالى: (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ...) ورفع صوته بحديثه، وكان القنصل يعرف العربيّة، فأمر الإمامُ أحد خدمه أن يذهب للشيخ ويقول له: يقول الإمام: بَرَكَة - أي أَنْهِ حديثك - فقال له الخادم ذلك . لكن الشّيخ لم يمتثل وأكمل حديثه، فردّ عليه الخادم

مرة ثانية، فلم يمتثل الشيخ . فأمر الخادم في المرّة الثالثة، وقال: قل له: بركة، وقُمْ . فلمّا قالها له، قال الشّيخ: سمعاً وطاعة . فختم مجلسه ثمّ قام من فوره وأمر خادمه بشراء مطايا للسّفر، من أجل أن يعود لوادي الدواسر مسقط رأسه .

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكـــن عـــاراً أن يزول التجمّلُ

فبلغ الخبر كبير علماء ذلك الوقت الشّيخ عبد الله بن عبد اللّطيف آل الشيخ، فذهب للإمام من ساعته وقال له: يا عبد العزيز هل أغضبت الشّيخ؟ فقال: إن الشيخ هداه الله يتكلم في الولاء والبراء ونحن عندنا القنصل . فقال الشّيخ: يا عبد العزيز لِعِلْمِك، إذا خرج الشيخ من الدروازة _البوابة_الجنوبيّة للرّياض فسأخرج من الدروازة الشّمالية، وسنترك الرّياض لك أنت وفلان، وسمّى شيخاً من شيوخ السّلاطين . فقال الإمام: لا يكون إلا خيراً اذهب يا شيخ عبد الله، وأَرض الشّيخ وقل له: يرجع ويعود . فقال الشّيخ: ليس أنا من يذهب إليه ولكن اذهب له أنت وعساه أن يقبل بالرجوع! فذهب الإمام لبيت الشّيخ سعد وطرق الباب، فأمر الشّيخ من عنده أن يقولوا: إنّه غير موجود (وهذا من المعاريض والتورية) فطرق الإمام الباب للمرّة الثّانية والثّالثة وهو يعرّف بنفسه، فبعد الثّالثة؛ خرج عليه وقال له كلمته المشهورة: يا عبدالعزيز أنت حقّك علينا عظيم، و لكن حقّ الله أعظم! وأنا أرى أشياء لا أطيق السكوت عليها . ثم رجع لدروسه وإفتائه .

فرحم الله أولئك العلماء الأفذاذ، ورحم الله ذلك الإمام الذي لم يمنعه ملكه وسلطانه من الذّهاب للشّيخ واسترضائه، ولا حرم الله أمّتنا في هذا الزّمان بمثل أولائك النّجوم الزّاهرة والبدور الظّاهرة والشّموس السّاطعة .